
الأعمال الكامله
t.me/kotbhm
ستيفان زفايغ
رسالة من مجهولة
ترجمة: أبو بكر العيادي
مراجعة وتقديم: العادل خضر
مسكلياني



الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

رسالة من مجهولة

عنوان الكتاب الأصليّ

Brief einer Unbekannten

Stefan Zweig

عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة

Lettre d'une inconnue

Stefan Zweig

Traduction par Alzir Hella et Olivier Bournac

ستيفان زفايغ

رسالة من مجهولة

ترجمة: أبو بكر العيّادي

مراجعة وتقديم: العادل خضر



الكاتب: ستيفان زفايغ
عنوان الكتاب: رسالة من مجهولة
ترجمة: أبو بكر العيّادي
مراجعة وتقديم: العادل خضر

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-992-63-2
الطبعة الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



Ottawa, ON. Canada
info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com

بعد جولةٍ قصيرةٍ في الجبل استغرقت ثلاثة أيّام، عاد الرّوائيّ الشهير «ر...» إلى فيينا في الصباح الباكر. اشترى صحيفة من محطّة القطار؛ وحالما وقعت عيناه على تاريخ اليوم، تذكّر أنّه يصادف ذكرى عيد ميلاده الحادية والأربعين. خطر ذلك بباله دون أن يثير فيه غمّا ولا مسرّة. تصفّح سريعًا أوراقَ الجريدةِ المُخشخشةَ، ثمّ ركب تاكسي وعاد إلى بيته. وبعد أن أعلمه خادمه بأنّه تلقّى خلال غيابه زيارتين وعددًا من المكالمات الهاتفية، حمل إليه بريده على طبق. نظر الرّوائيّ إلى الرّسائل بتكاسل ومزّق بعض المظاريف كان باعثوها يهمّونه. في البداية، وضع جانبًا رسالةً بدت له كثيفةَ الحجم ومكتوبةً بخطٍّ يجهله. جيء بالشّاي؛ جلس على أريكته متكئًا في راحة، وتصفّح من جديد الجريدة وبعض المطبوعات؛ ثمّ أشعل سيجارًا وتناول الرّسالة الّتي وضعها بجانبه.

كانت تتألف من حوالي دستتين من الصّفحات كُتبت على عجل، بخطّ امرأة متوتّر، وهي أقرب إلى مخطوط منها إلى رسالة. جسّ الظّرف مرة أخرى دون تعمّد ليرى ما إذا خلّف رسالة مصاحبة، ولكنّ الظّرف كان فارغا، وعلى غرار الأوراق نفسها، لم يكن

يحمل عنوان المرسِل ولا توقيعه. «غريب»، قال في نفسه، وأمسك بالأوراق من جديد. كُتب في أعلى الصفحة الأولى شيء كالاستهلال أو العنوان يحتوي على هذه الكلمات: *إليك يا من لم يعرفني يومًا*. توقّف مستغربا. هل هو المقصود؟ أم شخص متخيّل؟ تيقّظ فضوله، فجعل يقرأ:

ابني مات أمس –صارعتُ الموت ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليالٍ عسى أن أنقذ ذلك الكائن الصّغير الغضّ؛ بقيتُ جالسةً عند رأسه أربعين ساعة، والإنفلونزا تخضّ جسده المسكين الّذي ألهبته الحمّى. كنتُ أُبلّل جبينه المتّقد؛ وأمسك يديْه الصّغيرتيْن المحمومتيْن ليلَ نهار، وفي اللّيلة الثّالثة خارت قواي، ولم تعد عيناي تقويان على السّهر؛ فكانتا تُغمضان وقد أثقلهما النّعاس دون إرادتي. وهكذا بقيت ثلاثَ ساعات أو أربعًا نائمةً على كرسيّي البائس، كان الموت خلالها قد قبض روح ابني. هو الآن هنا، صغيري العزيز المسكين، قابع في سرير الأطفال الضّيّق، كما في لحظة موته، لا شيء تغيّر سوى أنّهم أسبلوا عينيه، عينيه السّوداوين الذّكيّتين، وجمعوا يديه على قميصه الأبيض، بينما كانت أربع شمعات تحترق فوقه في أركان السّرير الأربعة. لا أجرؤ على النّظر ولا على الحركة، لأنّ ألهبة الشّموع عندما تتمايل ينعكس وميضُها على وجهه وعلى فمه المغلق، فتبدو ملامحه كأنها تنتعش ويخيّل إليّ أنه لم يمت، وأنّه سيُفيق ويقول لي بصوته الصّافي بضع كلمات طفوليّة حانية. بيد أنّي كنت أعرف أنّه مات، ولا أريد أن أنظر إليه، فأصاب بالخيبة مرة أخرى. أعرف، أعرف أنّ طفلي مات أمس – ولم يبق لي في الدنيا سواك، أنت الذي لا يعرف عني شيئا،

قد تكون هذه السّاعة لاهيًا تلعب، دون أن تدري بما جرى، أو ربّما تتسلّى مع النّاس والأشياء. ليس لي أحد غيرك، أنت الّذي لم يعرفني قطّ، والّذي أحببته دائمًا.

أخذت الشّمعة الخامسة ووضعتها هنا على الطّاولة حيث أكتب لك الآن. فأنا لا أستطيع البقاء وحيدةً مع طفلي الميّت، دون أن أصرخ بكلّ جوارحي. ومن لي غيرك أبثّ إليه لوعتي في هول هذه السّاعة؟ ومن لي غيرك، أنت الّذي كنت كلّ شيء عندي ومازلت؟ لا أدري هل أعبّر بما يكفي من الوضوح، ولعلّك لا تفهمني؟ - رأسي ثقيل، وصدغاي يخفقان ويطنّان، وأطرافي تؤلمني كثيرا. أعتقد أنّي محمومة، وربّما أُصبت أنا أيضًا بالإنفلونزا[1] الّتي ترود الأبواب، وهذا أفضل لي، لأنّي ساعتها سأرحل مع طفلي، ولن أضطرّ إلى إلحاق الأذى بنفسي. أحيانًا تُظلم عيناي كأنّما مرّ أمامهما حجابٌ داكن، لعلّي لن أقوى حتّى على إتمام الرّسالة، ولكنّي أريد أن أجمع كلّ قواي لأكلّمكَ مرّةً، هذه المرّة لا غير، أنت يا حبيبي، يا من لم يعرفني قَطّ.

إليك وحدك أريد أن أتكلّم، إليك أنت أقول كلّ شيء، لأوّل مرّة؛ سوف تعرف حياتي كلّها، حياتي الّتي وهبتها لك دائمًا، ولم تكن تعلم عنها شيئا. ولكنّك لن تعرف سرّي إلا إذا متّ، فلن تضطر إلى الرّدّ عليّ، حين يكون ما يسري الآن في أطرافي، من هذا المزيج الهائل من الجليد والنّار، قد أرداني كُلّيًا. فإن كُتِب لي أن أعيش، فسوف

---

(1) الإنفلونزا: ينبغي التذكير هنا بوباء الإنفلونزا الذي اجتاح العالم وخلّف نحو عشرين مليون ضحية في بضع سنوات، قبيل نشر هذه القصة عام 1922.

أمزّق هذه الرّسالة، وأستمرّ في سكوتي، كما سكتُّ من قبل. ولكن إن بلغَتْكَ وكانت بين يديك، فاعلم أنّ ميّتة تروي لك قصّة حياتها، حياتها الّتي نذرتها لك، من ساعة وعيها الأولى إلى السّاعة الأخيرة. لا تَخْشَ كلماتي، فليس بوسع الميّتة أن تطالب بشيء؛ لن تطالب بالحبّ ولا بالعطف ولا بالعزاء. الشّيء الوحيد الّذي أطلبه منك هو أن تصدّق كل ما سيبوح به وجعي لك، فلا ملاذ له غيرك. صدّق كلّ ما أقوله لك، ذاك هو الرّجاء الوحيد الّذي ألتمسه منك؛ فالمرء لا يكذب في لحظة موت ابنه الوحيد.

أريد أن أكشف لك عن حياتي كلّها، تلك الحياة الّتي لم تبدأ فعلاً إلاّ يوم رأيتك. وقبل ذلك، لم تكن سوى شيء مضطرب ملتبس، لا تسترجعه ذاكرتي مُطلَقًا. كانت أشبه بقبو غطّت فيه الأتربةُ وخيوط العنكبوت الأشياء والكائنات ذات الملامح المُبهمة، وما عاد قلبي يعرف عنها شيئا. عندما أتيت، كان عمري ثلاث عشرة سنة، وكنتُ أقطن في المبنى الّذي مازلتَ تقطن فيه، المبنى ذاته الّذي تمسك فيه الآن هذه الرسالة، وهي آخر رمقٍ من حياتي، بيديك. كنت أسكن في الطّابق نفسه، قبالةَ باب شقّتك تحديدًا. لا شكّ أنّك ما عدت تتذكّرنا، ما عدتَ تتذكّر تلك المسكينة أرملة أحد الموظّفين في المالية (كانت في حداد دائم) ولا ابنتها النّحيفة المراهقة. فقد كنّا نعيش منزويتين كأنّنا تائهتان في تواضع صغار البرجوازيّين. لعلّك لم تسمع باسمنا يومًا، فلا يافطة لنا على الباب، ولا أحد يزورنا، أو يسأل عنّا. لقد مضى زمن طويل، خمسة عشر عاما أو ستة عشر! أكيد أنّك لا تتذكّر

يا حبيبي، أما أنا، أوه! فما زلت أذكر بشغف كلّ التّفاصيل. مازلت أذكرُ - كأنّ ذلك حدَثَ أَمْس - اليومَ وحتّى السّاعة الّتي سمعت فيها أوّل مرّة حديثًا عنك، أو اليوم الّذي رأيتك فيه لأوّل مرّة. وكيف لي أن أنساه وقد انفتح لي الكون كلّه؟ اسمح لي يا حبيبي أن أروي لك كلّ شيء، كلّ شيء منذ البداية، فلا تضجر، أتوسّل إليك، وأنت تسمعني أتحدّث عن نفسي مُدّة ربع ساعة، أنا الّتي لم تضجر، طيلة حياتها، يومًا من حبّك.

قبل انتقالك إلى مبنانا، كان يسكن خلف بابك أُناس خبيثون، مكروهون، لا يتوقفون عن الخصام. ورغم فقرهم، كان أكثر ما يكرهونه نحن، جيرانهم المحتاجين، لأنّنا لم نكن مثلهم في غلظة القلب وفظاظة المنحطّين. كان الزّوج سكّيرًا، ما ينفكّ يبرّح زوجته ضربًا، ولطالما كنّا نستيقظ في اللّيل على ضجّة الكراسي المقلوبة والصّحون المهشّمة؛ وذات مرة، فرّت المرأة نحو المدرج، شعثاءَ الشعر معنّفةً ينزّ منها الدّم، وزوجها السّكّير يصرخ من ورائها، حتّى خرج الجيران من بيوتهم وهدّدوه بإبلاغ البوليس. كان شاغل أمّي الأوّل هو أن نتجنّب مخالطتهم، وكانت تمنعني من محادثة أطفالهم، فكانوا ينتقمون منّي كلّما سنحت الفرصة. فإذا صادفوني في الطريق قذفوني بكلمات نابية، وذات يوم رموني بكُرَاتٍ من ثلج شديد الصّلابة، أدمت جبيني. كان كلّ من في المبنى يكره بغريزة مشتركة أولئك النّاس. وفي يوم من الأيّام نزلت بهم نازلة منكرة (أعتقد أنّ الرجل قد سُجن بسبب السّرقة) فاضطرّوا إلى إخلاء البيت، فتنفّسنا جميعًا الصّعداء. وظلت اللافتة الّتي كُتب عليها «للإيجار» معلّقة

على باب العمارة بضعة أيام، ثمّ سُحبت. فعلمنا من البواب
كاتبًا، وهو رجل وحيد هادئ الطّبع، قد أخذ الشّقة. جيبه سمعنا
باسمك يُنطَق لأوّل مرة.

بعد أيام قليلة، أقبل الدّهّانون ومصمّمو الدّيكور والنّجّارون ليعيدوا تهيئة الشّقة الّتي هجرها سكّانها القدامى. لم نكن نسمع غير دقّ المطارق وضجيج الأدوات والتّنظيف والكنس. ولكنّ أمّي لم تنزعج من ذلك قطّ، فقد كانت تقول: أخيرًا انتهت حقًّا خصومات الجيران الكريهة. أنت نفسك، لم أرك طوال الوقت الّذي استغرقه نقل الأشياء: كان خادمك يراقب الأعمال كلّها، ذلك الخادم ذو الهيئة المهذّبة، والجسم الصّغير، والشّعر الأشهب، ظلّ يدير الأعمال من علٍ بأساليب معتدلة واثقة. وقد فرض مهابته علينا جميعا، أوّلاً لأنّ خادما بهيئة بالغة التّهذيب توحي بأنّه من المجتمع الرّاقي، كان يمثّل عندنا، نحن القاطنين في إحدى عمارات الضواحي، شيئًا جديدًا كلّ الجدّة، ثمّ لأنّه كان مؤدّبًا مع كلّ واحد منا، دون أن تكون له مع أيّ خادم من خدم المنازل ألفة تدعوه إلى معاملته كرفيق. منذ اليوم الأوّل حيّا أمّي باحترام مثل سيّدة، وحتّى أنا الّتي لم تكن سوى طفلة، كان يحترمني، فيبدو لي دائم البشاشة بالغ الجدّ. وعندما كان ينطق باسمك، فإنّما يفعل ذلك دائما بنوع من الإجلال، وبوقار خاصّ: وسرعان ما تدرك أنّه أشدّ تعلّقًا بك ممّا يبديه الخدم في العادة من تعلّق. إيه! لكم أحببته من أجل ذلك، العجوز الطيب يوهان، وإن كنت أغبطه على حضوره بجانبك دومًا،

وأغبطه على خدمتك!

أروي لك كلّ هذا يا حبيبي، كلّ تلك الأمور الصّغيرة، التّافهة تقريبًا، لتفهم كيف استطعتَ، منذ البداية، أن تكون لك مثل تلك السلطة على الطفلة الوجلة الخجول التي كنت. وحتّى قبل أن تنجم في حياتي، كان يحيط بك شيء كالإكليل المشعّ، كهالة من الغنى والغرابة والغموض: كنّا جميعًا، في مبنى الضّواحي الصّغير ننتظر بفارغ الصّبر قدومك، فالنّاس الّذين يعيشون في ضيق نهمون دائمًا لمعرفة كل جديد يعبر أبوابهم. وكيف لا يحتدّ فيّ هذا الفضول لمعرفتك، عندما رأيتُ ذاتَ عشيّة، وأنا عائدة من المدرسة، سيّارة نقل أدباش أمام بيتنا! كان أغلب الأثاث، ولا سيّما الثقيل منه، قد حُمل إلى الشّقّة، وظلّ الأخفّ يُنقل قطعةً قطعة. بقيتُ واقفةً أمام الباب كي أمتّع نظري بكل شيء، ذلك أنّ أثاثك كان في نظري غريبًا، لم أر مثله قَطّ؛ كانت هناك أصنام هنديّة، ومنحوتات إيطاليّة، ولوحات كبيرة كثيرة الألوان، وفي النّهاية جاءت الكتب، وكانت من الكثرة والجمال ما لم أتخيّل لها مثيلا. كُدّست كلّها على العتبة فأقبل الخادم يحملها واحدًا واحدًا، وينفض عنها الغبار بمنفضةٍ من ريش. كنت أرود، في فضول، بكومة الكتب الّتي مافتئت ترتفع. لم يطردني الخادم، ولكنه لم يشجّعني أيضًا، فلم أجرؤ على لمس أيّ كتاب، وإن كنتُ قد أحببت تحسّس الجلد الأملس لعدد كبير منها. لم أتمكّن إلاّ من رؤية العناوين، من الجانب، وفي وجل؛ كان من بينها كتب فرنسيّة وإنكليزيّة، وبعضها الآخر بلغات أجهلها. وكان بوسعي، فيما أظنّ، أن أتصفّحها جميعًا طيلة ساعات لو لم تنادني أمي.

طوال السّهرة، وجدت نفسي مندفعةً إلى التّفكير فيك، رغم أنّي لم أكن قد رأيتك بعد. لم يكن عندي غير دستة من كتب زهيدة الثمن مسفّرة بكرتون، قديمة كلّها، ومع ذلك أحبّها وأعيد قراءتها بغير انقطاع؛ عندئذ استبدّ بي هوَسٌ لمعرفة كيف يكون هذا الرّجل الّذي يملك هذا العدد الهائل من الكتب الرّائعة، الرجل الذي قرأ كلّ ذلك، ويتقن كلّ تلك اللّغات، إنّه بالغ الثّراء وواسع العلم في الآن نفسه. كان يتجمّع عندي نوع من الاحترام الخارق بمجرّد تصوّر تلك الكثرة من الكتب. وكنت أحاول أن أتصوّر كيف هي هيئتك. تخيّلتك رجلاً مُسنًّا، بنظّارات ولحية طويلة بيضاء، شبيها بأستاذ الجغرافيا، ولكن أكثر لطفا وحسنًا ورقّة. لا أدري لِمَ كنتُ على يقين من أنّك وسيم بالضرورة، حتى عندما كنت أتوهّمك في صورةِ رجلٍ عجوز. وفي تلك اللّيلة، وقبل أن أعرفك، حلمت بك لأوّل مرة.

من الغد جئتَ لكي تستقرّ، ولكنّي لم أتمكّن من رؤيتك رغم أنّي ترصّدتُك مرارًا، فما زادني ذلك إلاّ فضولاً. وأخيرًا، في اليوم الثالث، أبصرتك، وكم كانت مفاجأتي عميقة لمّا تبيّن لي أنّك مختلف عمّا ذهب في ظنّي، فلا علاقة لك بصورة الرّب الأب الّتي اصطنعتها بسذاجتي! لقد حلمتُ بعجوز طيّب بنظّارات، فإذا أنتَ كما أنتَ الآن، أنت الذي لا يتبدل، والّذي تنزلق عليه الأعوام دون أن تصيبه! كنتَ ترتدي بذلةً رياضة فاخرة، بُنّيّةً فاتحة، وتصعد المدرج جريًا، في خفّة شاب يافع لا تضاهيها خفّة، تصعد المدرج درجتَيْن درجتَيْن. كنتَ تُمسك قبّعتك بيدك، وأنا أتأمّل باندهاش لا يوصف،

وجهَكَ الطّافح بالحياة والصّفاء، بشعر مراهق. كنتُ حقًّا أرتجف من وقع المفاجأة وأنا أرى كم أنتَ شابٌّ وسيمٌ، مَرِنٌ، رشيقٌ، وأنيق. وهذا ليس بالعجيب: فمنذ تلك اللّحظة، انتابني بجَلاءٍ ما ينتاب النّاس أجمعين عند رؤية مظهرك، وما نحسّ به بطريقة فريدة في شيء من التّفاجؤ: فقد كان فيك رجلان - شابٌ متّقد مرح منصرف للّهو والمغامرة، وفي الوقت ذاته، من جهة فنّك، شخصية ذات جدّ صارم، وفيّة للواجب، مثقّفة ومهذّبة للغاية. أحسست دون وعي بما حزره الجميع عندما عرفوك: أنّك تحيا حياة مزدوجة: حياة تدير وجهها الصّافي بلا مواربة نحو العالم، وأخرى تغوص في الظل، ولا يعرفها سواك. هذه الازدواجيّة العميقة، سرّ وجودك، أحسّت بها صبيّة في الثّالثة عشرة من عمرها فُتنت بك حدّ السحر من أول نظرة.

أتعي يا حبيبي أيّ روعة، بل أيّ لغز فاتن كنتَ تمثّل في نظري... في نظري أنا الطّفلة. شخصٌ نجلّه لأنّه يؤلف كتبا، ولأنه مشهور في العالم الرّحيب، ثمّ نكتشفه فجأة بملامح شابّ في الخامسة والعشرين، أنيق وفي بشاشة فتى مراهق؟ هل ينبغي أن أقول لك أيضًا إنّي منذ ذلك اليوم، في بيتنا، في كون الصّبيّة البائس برمّته، لم يعد يعنيني غيرك أنت، وبكل عناد فتاة في الثالثة عشرة وتشبّثها المهووس، لم يعد لي غير انشغال وحيد: أن تكون حياتك ووجودك مداري! كنت أراقبك، أراقب عاداتك، أراقب النّاس الّذين يأتون إليك؛ وبدل أن يخفّف ذلك من فضولي الّذي بثثته فيّ، لم يزده إلاّ تأجّجا، ذلك أنّ طبع كيانك المزدوج كان يتجلّى تمام التّجلّي في تنوّع

تلك الزيارات. كان يختلف إلى بيتك أناس في ريعان الشّباب، رفاقٌ تضحك معهم، وأنت في حيوية مفرطة، وطلبة في ألبسة بسيطة. ثم تقبل بعض السيّدات في سيارات، وذات مرّة، زارك مدير الأوبرا نفسه[1]، قائد الأروكسترا الكبير الّذي لم ألمحه إلا عن بعد، وهو أمام مِقْرئه، فتملؤني رؤيته احترامًا، وكانت تزورك كذلك بنات صغيرات مازلن يرتدْن مدرسة التّجارة، كُنّ يتسلّلن في حرج عبر الباب: وفي الجملة، نساء كثيرات. لم يكن ذلك يعني لي شيئًا مخصوصًا، حتّى يومَ لمحتُ، ذات صباح وأنا ذاهبة إلى المدرسة، سيّدة مبرقعةً، تغادر شقّتك: لم يكن لي سوى ثلاث عشرة سنة، والفضول الشّغوف الّذي كان يدفعني إلى مراقبتك والتّلصّص عليك لم يكن يعلم بعد، لشدة ما كنت طفلة، أنه الحب.

أمّا الآن فأنا أعلم بدقّةٍ يا حبيبي اليومَ والسّاعة اللّذين تعلّقتُ بك فيهما تمامًا وإلى الأبد. كنت أتجوّل مع رفيقتي في المدرسة، وكنّا نتحدّث أمام الباب. فإذا بسيّارة تقبل بسرعة، وتتوقّف، ثمّ قفزتَ بحركتك المتسرّعة، المرنة مرونة المطّاط، وماتزال إلى الآن تخلب لبّي... قفزتَ من المدرجة واتّجهتَ نحو الباب. لم أدر أيّ قوّة لاواعية دفعتني لأفتحه لك؛ تقاطعت خطواتنا وكدنا نتصادم. أرسلت نحوي تلك النّظرة الحارّة، اللّطيفة الآسرة، كالعناق؛ وتبسّمت لي

---

(1) مدير الأوبرا: بين 1918 و1924، كان الموسيقار الألماني رتشارد شتروس، بعد وفاة مؤلف مغنّاته المفضّل هوغو فون هوفمنستال، قد طلب من زفايغ إعداد كتيّب لمغنّاة «المرأة الصامتة»، عن بن جونسون، وهي أوبرا وقع إعدادها في درسدن عام 1936 (في غياب زفايغ الذي كان في منفاه بلندن). فيا له من انقلاب موسيقيّ وسياسيّ على الآلة النازية...

ابتسامة لا أستطيع أن أصفها إلاّ بأنّها رقيقة، وقلت بصوت ناعم يكاد يكون حميًا: «شكرا جزيلا آنستي».

هذا كلّ ما في الأمر يا حبيبي. ولكن منذ تلك اللّحظة، ومنذ أن أحسستُ بتلك النّظرة الوديعة النّاعمة، صرتُ لكَ بتمامي وكمالي. أدركتُ فيما بعد - آه! أدركتُ ذلك سريعًا - أنّ تلك النظرة المشعّة، تلك النظرة التي تقوم حولك مقام المغناطيس، النظرة التي تغطّيك وتعرّيك في الآن نفسه، تلك النّظرة الفاتنة بالفطرة، تجود بها على كلّ امرأة تمرّ بقربك، وكلّ عاملة في متجر تبيعك شيئًا مّا، وكلّ خادمة تفتح لك الباب؛ فنظرتك هذه لا وعي فيها، ولا إرادة ولا تعلّق؛ ذلك أنّ حنوّك، اللاّواعي تمامًا، على النّساء، يضفي على نظرتك مسحةً لطيفةً حارّة حين تلتفت إليهنّ. أمّا أنا، طفلة الثّالثة عشرة، فلم أكن على علم بتلك السّمة في طبعك: كنتُ كالغائصة في نهر من نار. خِلْتُ أنّ ذلك الحنان لم يكن لأحد سواي، لي وحدي؛ وكانت تلك اللّحظة الفريدة كافيةً لتجعل من تلك المراهقة امرأة، وهذه المرأة كانت لك إلى الأبد.

«من يكون؟» سألَتْ صديقتي. لم أستطع أن أجيبها في الحال. تعذّر عليّ أن أذكر اسمك. فمنذ تلك اللّحظة الأولى، تلك اللّحظة الفريدة، صار اسمُك عندي مُقدَّسًا، صار سرّي الشخصيّ. «أفّ! رجل يسكن هنا في المبنى» غمغمتُ برعونة.

-«إذن لماذا تورّد وجهك بهذا الشكل عندما نظر إليك؟» سألت صديقتي بتهكّمٍ، وبمكر طفلة فضوليّة. ولمّا أحسست بأنّ تهكّمها

يهدّد سرّي، صعد الدّم إلى وجنتيّ بمزيد من الحرارة. وجعلني الحرج الّذي شعرت به فظّة: «يا لك من صغيرة بلهاء!» صرخت فيها بعنف؛ ووَدَدْتُ لو خنَقْتُها. غير أنّها أخذت تقهقه بتهكّم عظيم؛ أحسست بأنّ عينيّ توشكان على البكاء من فرط الغضب والقهر. تركتها حيث هي وصعدت إلى شقّتنا جريًا.

منذ تلك اللّحظة أحببتك. أعرف أنّ النساء مافتئن يقلن لك هذه الكلمة، لك أنت طفلهن المدلّل. ولكن صدّقني، ما من أحد أحبّك بقوّة، كأمَةٍ، ككلب، بكثير من التّفاني كما أحبّك ذاك الكائن الّذي كنتُ، ومن أجلك ظللت أحبّك ومازلت. لا شيء على الأرض يشبه حُبًّا لا يلمحه أحد، حبّ طفلة انزوت في الظّلّ؛ هذا الحبّ هو من الترفّع والبساطة والخضوع والحرص والشّغف ما لا يمكن أن يساويه أبدًا حبٌّ قائم على رغبة، ملحّة رغم كل شيء، من امرأة ناضجة. الأطفال المنعزلون هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحتفظوا بعشقهم لأنفسهم، أمّا الآخرون فإنّهم يبعثرون شعورهم في الهذر، وينهكونه بالبوح به. لقد سمعوا كثيرًا عن الحب، ووجدوه في الكتب، ويعرفون أنّه قانون مشترك، ويلهون به كما يلهون بدمية رخيصة. ويزهون به في كِبْرٍ كفتى مزهوّ بسيجارته الأولى. أمّا أنا فليس لي أحدٌ أبوح له بسرّي، فيعلّمنيَ وينبّهني، كنت غرّة لم تحنكني التّجارب: أندفع نحو قدري كأني أندفع إلى هاوية. كلّ ما يصعد من كياني ويتفتّح لا يعرف أحدًا غيرك، لا يعلم شيئا سوى الحلم بك واتّخاذك صديقا حميمًا. أبي مات منذ مدّة، وأمي غريبة

عنيّ، بحزنها الأبديّ، وضناها، وبهموم أرملة ليس لها غير معاشها كي تقيم أودها. أمّا بنات المدرسة، وقد فسدت أخلاقهنّ أو تكاد، فكنّ يثرن اشمئزازي لأنّهن يلعبن بخفّة مع ما كان يمثّل عندي قمّة الوجْد. لذلك كل ما يقبل التشارك لدى الآخرين والتقاسم لا يشكّل عندي سوى كتلة، وكلُّ كياني، المنكمش حول نفسه، في غليانٍ دائم وقلقٍ مضطرم، ملتفتٌ برمّته إليك. كنتَ لي -كيف أقول ذلك؟ فكلّ تشبيه سيكون قاصرًا كلّ القصور- كنت بالضّبط كلّ شيء بالنسبة إليّ، كلّ حياتي. لا شيءَ موجودٌ إلا بقدْر علاقته بك. لا معنى لشيء في وجودي إن لم يقرّبني منك. لقد قلبت طريقة عيشي كلّها، وكنت إلى ذاك الحين لا مبالية ضعيفة النّتائج في المدرسة، فأصبحت الأولى في الفصل. كنت أقرأ مئات الكتب حتى وقتٍ متأخّر من اللّيل، لأنّي أعرف أنّك تحبّ الكتب. وبدأتُ فجأةً، أمام تعجّب أمي، أتدرّب على البيانو بمواظبة لا يمكن تصوّرها، لأنّي ظننت أنّك تحبّ الموسيقى. ولم أصلح ملابسي ولم أسوّ زينتي إلاّ لأبدو لك فحسب في هيئة نظيفة تسرّ ناظريك. لذلك بدت لي فكرة بذلة الفصل القديمة (وهي تحويل فستان أمّي المنزليّ) وقد وضع على جهتها اليسرى مربّع من قماش مقتطع فكرةً شنيعة. فلو صادف أن لاحظتها، فلسوف تحتقرني! ولأجل ذلك كنتُ دائمًا أمسك محفظتي مضمومةً إلى جسدي حين أصعد المدارج جريًا، وأنا أرتجف خوفًا من أن تراها. ولكن كم كان ذلك أمرًا أخرق، لأنّك لم تنظر إليّ قطّ، تقريبًا لم ترمقني قطّ بنظرة!

ورغم ذلك، والحق يُقال، كنت أقضّي أيامي في انتظارك وترصّدك. فقد كانت ببابنا عدَسةٌ صغيرة من النّحاس الأصفر، يمكن أن نرى من ثقبها المستدير ما يجري في النّاحية الأخرى، أمام شقّتك. تلك العدَسة -لا، لا تضحك يا حبيبي، حتى اليوم لا أخجل من تلك الساعات!- تلك العدَسة كانت عندي العين الّتي أستكشف بها الكون؛ هنالك، طوال أشهر وأعوام، كنت أجلس في البهو البارد كالصّقيع، وبيدي كتاب مخافة أن ترتاب أمّي في أمري، وأقضّي أماسيَ كاملة في الترقّب، مشدودة مثل وتَر كمان، مختلجة إذا ما لامس حضورُك الوتَر. كنتُ دائمًا مشغولة بك، دائمًا في انتظارٍ وحركة؛ ولكنّك لم تكن تنتبه إلاّ بمقدار ما تنتبه لتوتّر لولب السّاعة الّتي تحملها في جيبك، السّاعة التي تقيسُ بأناة أوقاتك خفيّةً، وترافق خطواتك بنبضات قلب خافتة، بينما لا تكاد نظرتُك العجلى تمسّها سوى مرّة واحدة من بين ملايين الدّقّات المتيقّظة على الدّوام. أعرف عنك كلّ شيء، أعرف كلّ عادة من عاداتك، كلّ ربطة عنق من ربطاتك، وكلّ بذلة من بِذْلاتك؛ كنتُ أعاينُ كلَّ زائرٍ من زوّارك ثم صرتُ أميّزهم، وأقسّمهم إلى صنفين: أولئك الّذين أستلطفهم وأولئك الّذين لا أستلطفهم. من عامي الثّالث عشر إلى عامي السّادس عشر، لم تمض ساعة لم أقضها إلاّ لك. آه! كم من عمل جنونيّ اقترفت خلالها! كنت ألثم زرّ الباب الّذي تلمسه يدُك، وأختلس على عجل عقب السّيجارة الذي ترميه قبل دخولك، فهو مقدس لديّ لأنّ شفتيك داعبتاه. كنت أنزل إلى الشّارع مائة مرّة في المساء، بأيّ تعلّة، لأرى من أيّ غرفة من غرفك ينبعث النور،

فأحسّ بشكل ملموس بحضورك. وأثناء الأسابيع التي تكون فيها مُسافرًا - وكم كان قلبي يتوقّف من الاضطراب، كلّما أبصرتُ بوهان الطيّب يُنزل حقيبة سفرك الصّفراء - تظلّ حياتي طوال تلك الأسابيع في حالة موات، بلا هدف. أروح وأجيء، متعكّرةَ المزاج، ضجرةً، سيّئة الخُلق، مع ما يلزم دائمًا من حرصٍ كي لا تلاحظ أمي اليأس في عينيَ المحمرّتيْن من أثر الدموع.

أعرف أنّي أحكي لك هاهنا سُخف حماستي وطيش جنوني. ويُفترض أن أخجل من ذلك، كلاّ، لست خجلة، لأن حبّي لك لم يكن أشدّ نقاءً ووجْدًا إلاّ بذلك الإفراط الطّفولي. يمكنني أن أحكي لك طيلة ساعات وأيّام كاملة كيف عشتُ وقتها معك، معك أنت الّذي لا يكاد يعرف وجهي، لأنّي كنت، كلّما قابلتك في المدرج ولا أجد حيلة لأتجنّبك، خوفًا من نظرتك الحارقة، أمرّ جريًا أمامك منكّسة الرّأس كمن يحاول الارتماء في الماء هربًا من النيران. يمكن أن أحكي لك طيلة ساعات، طيلة أيّام، تلك الأعوام الّتي نسيتها أنت منذ زمن بعيد؛ يمكن أن أنشر روزنامة حياتك بأكملها، ولكنّي لا أريد إزعاجك، لا أريد أن أشغل بالك. أريد فقط أن أبوح لك بأجمل حدث في طفولتي، وأرجوك ألاّ تستهزئ من تفاهته، لأنّ ذلك كان، عند تلك الطّفلة، أمرًا مُطْلَقًا.

كان يومَ أحدٍ على ما أظنّ، وكنتَ مسافرًا، وكان خادمك يجرّ زرابيّ ثقيلة ينفض عنها الغبار عبر باب شقّتك المفتوح. كان ذلك العجوز الطيّب يجد صعوبة في حملها، وفي فورةٍ من الجسارة دنوتُ منه

وسألته هل بمكنني مساعدته. تفاجأ، ولكنّه تركني أساعده، ومكّ
أمكنني -آه! أودّ أن أقول لك بأيّ ورع وإجلال تقريبًا- أن أرى
داخلَ شقتك، وكونكَ، والطّاولةَ الّتي كنت تجلس إليها كي تكتب
وعليها بضع أزهار في مزهرية من الكريستال الأزرق، وأثاثك
ولوحاتِك، وكتبَك. لم تكن سوى نظرة خفيّة عابرة في حياتك. لأنّ
خادمك الأمين جوهان كان قطعًا سيمنعني من النّظر عن قرب؛ بيد
أنّ تلك النّظرة كانت كافية كي أتشرّب كلّ الأجواء، فقد زوّدتني
بالغذاء الكافي كي أحلم بك بلا نهاية في يقظتي وفي نومي.

تلك الدقيقة العجلى كانت أسعد لحظة في طفولتي. أردت أن أرويها لك لكي تفهم أخيرًا، أنت الذي لا يعرفني، كيف تعلقت حياتي بك حدّ التلاشي. أردتُ أن أرويها لك، كذلك مع لحظة أخرى، تلك السّاعة الرّهيبة الّتي كانت للأسف قريبةً جدًّا من الأولى. كنتُ، كما أسلفتُ القول، قد نسيت كلّ شيء لأجلك، لا أعتني بأمّي ولا أنشغل بأحد. لم الاحظ أنّ رجلا مُسنًّا، تاجرًا من إنسبروك، ومن أقارب أمّي بالتّصاهر، كان يأتي كثيرًا لزيارتها ويمكث عندها مدّة. وبالعكس، كان ذلك يسرّني، لأنّه كثيرًا ما كان يرافقها إلى المسرح، وبذلك أستطيع أن أبقى وحدي لأفكّر فيك وأرقبك، وذلك منتهى غبطتي الوحيدة. لكن ذات يوم، دعتني أمّي إلى غرفتها في شيء من التّجهّم، وقالت لي إنّها تريد أن تتحدّث معي بكلّ جدّ. امتقع وجهي وجعل قلبي يدقّ بغتةً بعنف: هل تشكّ في شيء مّا؟ هل اكتشفت سرّي؟ أوّل من خطر ببالي هو أنت، أنت

السّرّ الذي يربطني بهذا الكون. غير أنّ أمّي أيضًا كانت محرجة؛ قبّلتني بحنان (وهو ما لا تفعله قَطُّ)، مرّةً، مرّتين؛ قرّبتني إليها على الكنبة وبدأت تحكي، في تردّد وحياء، عن قريبها، لتقول لي إنّه أرمل، وإنّه طلبها للزواج وإنها قررت، بسببي في المقام الأول، أن توافق. صعد الدّم إلى قلبي بعنف أشدّ: خاطرة واحدة تردّدت في أعماقي، خاطرة موجّهة إليك. «ولكن، هل سنبقى هنا على الأقلّ؟ ذاك ما أمكنني قوله بتلعثم. كلاّ، سننتقل إلى إنسبروك؛ فرديناند يملك فيلاّ فاخرة هناك». لم أسمع المزيد، فقد أظلمت عيناي. وبعدها علمت أنّي فقدت وعيي؛ سمعتُ أمّي تقول في خفوت لفرديناند الّذي كان ينتظر خلف الباب إنّي تراجعتُ بغتةً ممدّدةَ اليدين قبل أن أخرّ على الأرض مثل كتلة من الرّصاص. ما جرى في الأيام اللاّحقة وكيف قاومت أنا الطّفلة الضّعيفة إرادتها الغالبة، لا أستطيع أن أرويه لك: فبمجرّد التفكير فيه ترتجف يدي وأنا أكتب لك. ولمّا كنت لا أستطيع أن أبوح بسرّي الحقيقيّ، بدت مقاومتي نوعًا من العناد والإساءة والتّحدي. ما عاد أحد منهما يخبرني بشيء، تمّت الأمور في غفلة منّي. استُغلّت السّاعات التي أكون خلالها في المدرسة لنقل الأثاث: كلّما عدت إلى البيت، وجدت شيئًا جديدًا نُقل أو بيع. وهكذا رأيت الشّقّة تذهب قطعةً قطعةً، وتذهب حياتي معها في الوقت نفسه؛ وفي آخر مرّة، عدت ذات يوم لتناول الغداء فاتّضح لي أن ناقلي الأثاث قد أتوا وحملوا كلّ شيء.

في الغرف الفارغة كانت الحقائب جاهزة للحمل، وكذلك

سريران نقّالان لي ولأمّي: كان لا بدّ أن ننام هنا ليلة أخرى، ونذهب من الغد إلى إنسبروك.

أثناء ذلك اليوم الأخير، أحسست بصرامة مباغتة أنني لا أستطيع العيش بعيدًا عن جوارك. لم أجد خلاصًا آخر غيرك. لن أستطيع أبدًا أن أقول كيف خطرت تلك الفكرة ببالي، وهل كنت حقًّا قادرة على التفكير بصفاء في ساعات اليأس تلك؛ ولكنّي قمت فجأة (كانت أمّي قد خرجت) وذهبت إليك كما كنت، في لباس التّلميذة. كلاّ كلاّ. فلفظ «ذهب» ليس دقيقا: بل قل هي قوّة مغناطيسية دفعتني نحو بابك، ورجلاي متصلّبتان، ومفاصلي ترتجف. جئت كي أعلمك، دون أن أدري بالضبط ما أريد: أرتمي عند قدميك وأتوسّل إليك بالاحتفاظ بي كخادمة، كأمَة؛ خشيت أن تضحك من هذا التّعصّب البريء لطفلة في الخامسة عشرة من عمرها، ولكنّك يا حبيبي، لن تضحك لو كنت تعلم في أي حال كنت حينئذ، وأنا في الممرّ الجليديّ، وقد جمّدني الخوف، مندفعة إلى الأمام رغم ذلك بقوّة لا يمكن تخيّلها، وكيف كنت أقتلع، إن جاز التعبير، ذراعي المرتجفة من جسدي كي ترتفع (كان صراعًا دام ديمومة الأبدية لثوانٍ فظيعة) ويضغط إصبع على زرّ الباب. وحتّى الآن مازال يطنّ في أذني رنين الجرس الحادّ، ثم الصّمت الّذي تلاه، بينما توقّف قلبي وكفّ دمي عن الدّوران، ، كنت فقط أرقب ما إذا كنت ستأتي.

ولكنّك لم تأت. لم يأت أحد. لعلّك خرجت ظهر ذلك اليوم، وذهب يوهان لقضاء بعض الشؤون؛ وهكذا رجعت مترنّحة (أحمل

معي، في طنين أذنيّ، صوت الجرس) إلى شقّتنا المضطربة الخالية من أثاثها، فارتميت مجهدة على بطانية سفر، مرهقة من تلك الخطى الأربع كأنّي مشيت على ثلج سميك طيلة ساعات. ولكن تحت ذلك الإرهاق مازال عزمي الشّديد على رؤيتك والتّحدث إليك يتّقد، قبل أن أُنتزَع من هذه الأمكنة. وأقسم لك، لم يكن ثمّة أيّ تفكير حسّيّ؛ فمازلتُ وقتها جاهلة، لأنّني لم أكن أفكّر في شيء آخر سواك: كنت أريد فقط أن أراك، أن أراك مرّة أخرى، وأتشبّث بك. طوال اللّيل، وكامل تلك اللّيلة الطّويلة الرّهيبة، انتظرتك يا حبيبي. ما إن انحشرت أمي في الفراش ونامت حتّى تسلّلتُ إلى البهو لأراك عائدا. انتظرت كامل الليل، وكانت ليلة من جليد، من ليالي يناير. كنت مرهقة، وأطرافي تؤلمني ولا مقعد لأجلس عليه: فاستلقيت عندئذ على الأرضيّة الخشبيّة الباردة حيث ينفذ من الباب تيّار هوائيّ بارد. بقيت هكذا ممدّدة، مجمّدة، مهدودةَ الجسد، لا شيء عليّ سوى لباس خفيف لأنّي لم أحمل غطاء؛ لم أكن أريد أن أدفأ كثيرًا خوفا من أن يغلبني النّعاس فلا أسمع خطوك. أيّ ألم قاسيت! كنت أضغط، بتشنّج، على رجليّ، الواحدة على الأخرى، ويداي ترتعدان، وكنت مضطرّة، في كلّ مرّة، على الوقوف، من فرط البرد في تلك الظّلمة الفظيعة. ولكنّني انتظرتك، وانتظرتك، انتظرتك كأنّك قدري.

أخيرا (كانت السّاعة تشير إلى الثّانية صباحًا أو الثّالثة)، تناهى إلى سمعي، في أسفل العمارة، صوت باب الشّارع وهو يُفتح، ثمّ خطى تصعد السّلّم. فجأة زال عنّي البرد، وغمرتني حرارة منعشة،

ففتحت الباب بلطف لأندفع نحوك وأرتمي عند قدميك... آه!
لا أدري، أنا الطّفلة المجنونة، ماذا كنت سأفعل عندئذ. اقتربت
الخطوات، وتمايل ضوء شمعة في المدرج.

كنت أمسك رتاج الباب بيد مرتجفة: هل أنت هو القادم هكذا؟
أجل، كنت أنت القادم يا حبيبي – ولكنّك لم تكن وحدك. سمعت
ضحكة خفيفة مرحة، وحفيف فستان من الحرير وصوتك يتكلّم
خافتًا. كنتَ عائدا إلى بيتك مع امرأة...

كيف استطعت أن أعيش بعد تلك اللّيلة، لا أدري. في صبيحة
الغد، في الساعة الثّامنة، أخذوني إلى إنسبروك؛ لم تعد لي قوّة للمقاومة.

طفلي مات البارحة– من الآن فصاعدا سأكون وحيدة من جديد،
هذا إن كان عليّ أن أواصل العيش. غدا سوف يأتي رجال نكرات،
غلاظ القلب، في ألبسة سوداء، ليحملوا التّابوت، ويضعوا فيه طفلي
المسكين، طفلي الوحيد. قد يأتي أيضًا أصدقاء يحملون أكاليل، ولكن
ما نفع الأزهار على تابوت؟ سيعزّونني، ويقولون لي كلمات وكلمات،
ولكن هل سيجدي ذلك نفعا؟ أعرف، ها أنني قد عدتُ وحيدةً من
جديد. وليس أشنع من أن أكون وحيدة وسط النّاس. لقد خبرت
ذلك خلال هذين العامين الطّويلين اللّذين قضيّتهما في إنسبروك،
ذلك الزّمن المنحصر بين عامي السّادس عشر وعامي الثّامن عشر،
حيث عشت مثل سجينة، منبوذة وسط عائلتي. كان زوج أمّي، وهو
رجل هادئ الطّبع قليل الكلام، طيّبا معي؛ وكانت أمّي تبدو ليّنة
العريكة تلبّي كلّ رغباتي، كأنّها تصلح ما أفسدته بظلم غير متعمّد؛

وكان الفتيان يتهافتون حولي، ولكنّي كنت أصدّهم بعناد شديد. لم أكن أريد أن أحيا سعيدة راضية بعيدًا عنك، فكنت أغوص في كون قاتم من الوحدة والعذاب أفرضه على نفسي بنفسي. الفساتين الجميلة الّتي كانت تُشترى لي لا ألبسها؛ أرفض الذّهاب إلى الحفلات الموسيقيّة والمسرح، أو المشاركة في الرّحلات في رفقة مرحة. ولا أكاد أغادر البيت: هل تصدّق يا حبيبي أنّي لا أعرف في تلك المدينة الصّغيرة الّتي عشت فيها عامين أكثر من عشرة أنهج؟ كنت في حداد وأريد أن أبقى في حداد؛ كنت أنتشي بكلّ حرمان فأضيفه إلى حرماني من رؤيتك. وباختصار، لم أكن أريد التّسلي عن غرامي: أن أعيش لك. كنت أبقى جالسة في بيتنا؛ طوال ساعات، طوال أيّام لا آتي خلالها شيئا غير التفكير فيك، التفكير فيك بلا انقطاع، مجدّدة دائما ذكرى الأحداث الصّغيرة الّتي أحملها عنك، كلّ لقاء وكلّ انتظار، فأستحضر دائما تلك الوقائع الصّغيرة كما في المسرح. ومن فرط ما استدعيت كلّ لحظة من ماضيّ ظلّت أعوامُ طفولتي مضطرمة في ذاكرتي، ومازالت كلّ دقيقة من تلك الأعوام تعيش بداخلي بنفس الحرارة والانفعال وكأنّها جعلت دمي يفور البارحة.

لأجلك وحدك عشت حينئذ. كنت أشتري كتبك؛ وعندما أجد اسمك على الجريدة فذلك يوم عيد لديّ. هل تصدق أنّي أحفظ عن ظهر قلب كلّ سطر من كتبك، لكثرة ما أعدت قراءتها؟ لو أيقظوني من نومي أثناء الليل، وذكروا أمامي سطرًا مُقتطفًا من كتبك، فإنّي مازلت إلى الآن، بعد ثلاث عشرة سنة، قادرة على إتمامه، كما يجري في

الحلم؛ ذلك أنّ كلّ كلمة منك هي عندي إنجيل وصلاة. فلا وجود في نظري للعالم بأسره إلاّ إذا كان يربطك به سبب: لا أتابع في صحف فيينّا الحفلات الموسيقيّة والعروض الافتتاحيّة إلا بنيّة أن أعرف أيًّا منها يستهويك، وعندما يأتي المساء، أرافقك عن بُعد: هو الآن يدخل القاعة، والآن يجلس. ألف مرّة حلمت بذلك، لأنّني ذات مرّة، مرّة واحدة، رأيتك في حفل موسيقيّ.

ولكن لمَ أروي لك كلّ هذا، هذا التّعصّب الهائج المنفلت وقد انقلب عليّ، هذا التّعصّب التّراجيدي اليائس لطفلة منبوذة؟ لمَ أرويه لشخص لم يُداخله إحساس به، ولم يعلم به قطّ؟ ورغم ذلك، أمازلت طفلة؟ فقد بلغت السّابعة عشرة أو الثّامنة عشرة، وكان الفتيان قد بدؤوا يلتفتون إليّ في الشارع، ولكنهّم لا يثيرون سوى غضبي. لأنّ الحبّ، أو حتّى فكرة حبّ شخص آخر غيرك، ولو على سبيل العبث، لم تخامرني مُطلَقًا، بل هي غريبة كلّ الغرابة؛ كان مجرد الغواية جريمة في نظري. عشقي لك ظلّ هو نفسه، إلاّ أنّه كان يتحوّل مع جسدي؛ وعلى قدر ما كانت حواسّي تتيقّظ، صار أشدّ تأجّجًا، وأكثر حسّيّةً وأنوثة. وما لم يكن بمقدور الطّفلة أن تستشعره، في إرادتها السّاذجة المضطربة، تلك الّتي دقّت فيما مضى جرس بابك، قد أضحى الآن فكرتي الوحيدة: أن أمنحك نفسي، وأستسلم لك.

كان النّاس من حولي يحسبونني متخوّفة ويدعونني بـ«الخجول» (لم أهتك السّتر عن سرّي). ولكن كان ينشأ بداخلي عزم من حديد. فانصبّ كلّ فكري وكامل جهدي على هدف وحيد: هو العودة إلى

فيينا، لأكون بقربك. ونجحت في فرض إرادتي، وإن بدت للآخرين شديدة الجنون، وغير مفهومة. كان زوج أمي ثريًا، ويعتبرني ابنته، غير أنني أعربت بعنادي الجامح عن رغبتي في كسب عيشي بنفسي، وأفلحت، آخر الأمر، في العودة إلى فيينا عند أحد أقاربي، والعمل في متجر كبير للملابس الجاهزة.

هل من الضّروري أن أقول لك إلى أين توجّهتُ حالما وصلتُ -أخيرا، أخيرا!- إلى فيينا في مساء خريفيّ ضبابيّ؟ تركت حقيبتي في محطّة القطار، واندفعت إلى التّرام- وكم بدا لي بطيئا في سيره! كانت كلّ محطة تثير سخطي - وعدوت حتّى وصلت أمام العمارة. كانت نوافذ شقّتك مضاءة، وقلبي يدقّ بعنف. عندها فحسب استعدت الحياة في هذه المدينة، وقد كان الضّجيج فيها حتّى تلك اللّحظة غريبًا ومجرّدًا من المعنى؛ عندها فحسب استأنفت الحياة، وأنا أشعر بقربي منك، حلمي على الدّوام. كنت على يقين من أنني لم أكن قريبة من خواطرك وبيننا أودية وجبال وأنهار، على الرغم من أنّ كلّ ما يحول بينك وبين نظرتي اللاّمعة في هذه السّاعة هو زجاج نافذتك الرّقيق المُضاء. نظرت إلى فوق، هنالك كان الضّوء، وهنالك كانت الشّقّة، وهنالك كنت أنت، أنت كوني. وطوال سنتين، حلمت بهذه السّاعة، وقد أتيح لي الآن أن أعيشها. طيلة المساء، مساء الخريف هذا المغيّم العذب، ظللت أمام نافذتك حتّى انطفأ النّور. وبعدها فقط ذهبتُ أبحث عن مسكني.

كنتُ أعود لأقف قبالة العمارة بالطريقة ذاتها كلّ مساء. أظلّ

أعمل في المغازة حتّى السّادسة مساء؛ كان عملاً عسيرًا ومُرهقًا، ولكنّي أحببتُه، لأنّ كل تلك المجهودات كانت تمنعني من الإحساس باهتياجي نحوك بالقدر المعهود من الألم. وحالما يسدل ستار الحديد خلفي، أجري مباشرة إلى موقعي الحبيب. فأنْ أراك مرّة واحدة، وأن ألتقي بك مرّة واحدة، تلك كانت رغبتي الوحيدة، أن أستطيع من جديد تقبيل وجهك بنظرتي عن بُعد. وقد تحقّق ذلك بعد أسبوع، في وقت لم أكن أنتظر وقوعه: بينما كنت أرقب نوافذك العالية، أقبلت نحوي عابرًا الشّارع. وفجأةً عدتُ طفلةَ الثّلاثة عشر ربيعا؛ أحسستُ بالدم يتدفّق في خدّيّ؛ دون إرادة منّي، ورغم رغبتي الحميمة في رؤية عينيك، طأطأتُ رأسي ومررتُ أمامك جريًا، مثل دابّة طريدة. ثم اعتراني الخجل من هذا الهروبِ الوجِلِ، وجلَ تلميذة صغيرة، لأن إرادتي صارت الآن واضحة جدّا: كنت أريد أن ألتقي بك، كنت أبحث عنك، أريد أن تعرفني بعد كلّ هذه السّنوات الّتي ظللت أنتظرك فيها متوارية في الظّلّ؛ أريد أن تقدّرني، وأن تحبّني.

لكن مرّ وقتٌ طويلٌ دون أن تلاحظ شيئًا، وإن كنتُ أرقبك في الشّارع كلّ مساء، حتى في ليالي الثّلوج المُعْصِرَات، وريح فيينا العنيفة القارسة. لطالما انتظرتك ساعاتٍ بلا جدوى، ولطالما كنت تغادر بيتك صحبة زوّار؛ وفي مرّتين رأيتك أيضًا رفقة نساء، فأدركت عندئذ أنّي كبرت: اعتراني منك نوع جديد مختلف من المشاعر، إذ ارتجف قلبي بغتة، رجفة مزّقت روحي، حين أبصرتُ امرأة غريبة تمشي بجانبك واثقة الخطو وقد أسلمتك ذراعها. لم أفاجأ لأنّي كنت

أعرف، منذ أيّام الطّفولة، زائراتك الدائمات، ولكن الآن حدث شيء بداخلي بغتة، مثل ألمٍ جسديٍّ، شيء كان يتشنّج بداخلي، فيه ما فيه من العِداء والغيرة، في حضور تلك الأُلفة الجسديّة الجلية مع أخرى.. وفي أنفتي السّاذجة كما كنت، وربّما مازلت إلى الآن. انزويتُ ليومٍ كامل؛ ولكن كم اشتدّت عليّ وطأة ذلك المساء الخاوي، وقد مضى بين الكبرياء والتّمرّد دون أن أرى شقّتك! وفي مساء الغد، كنتُ، مرّةً أخرى، واقفةً بتذلُّل أمام عمارتك أنتظر، تمامًا كما أمضيتُ حياتي كلها واقفة أمام حياتك، وكانت مغلقة في وجهي على الدوام.

وأخيرًا، انتبهت إليّ ذات مساء. رأيتُك قادمًا عن بعد، فجمعت كلّ ما فيّ من إرادة لكَيْلا أحيدَ عن طريقك. وشاءت الصّدفة أن سدّت الطّريقَ سيّارةٌ كانت تُفرغ حمولتها، فاضطررت إلى أن تمرّ على مقربة منّي. فوقع نظرُكَ الشّارد عليّ دون تعمّد، لكي ينقلب، بعد أن التقى بنظرتي الشّاخصة نحوك- آه! لكم أرتعد من الذّكرى! - إلى تلك النّظرة الّتي تخصّ بها النساء، تلك النّظرة الوديعة، المداعبة والنّافذة حتّى اللّحم في الآن نفسه، تلك النّظرة الواسعة الّتي تأسر النّفوس، وجعلت من تلك الطّفلة امرأةً وعاشقة. خلال ثانية أو ثانيتين، فتنتْ تلك النّظرةُ نظرتي فباتت لا ترغب في التّخلص من إسارها. ثم مررْتَ. كان قلبي يخفق بسرعة، فتباطأتُ في مشيتي دون شعور. ثمّ رأيتُكَ، وقد دفعني فضول لا يُقهر إلى الالتفات نحوك، رأيتُكَ تتوقّف وتتابعني بعينيك. فأدركت ساعتها وأنت تعاينني في فضول واهتمام، أنك لم تتعرّف إليّ.

لم تتعرّف إليّ وقتها، ولا في أيّ وقت: لم تتعرّف إليّ قطّ. كيف يمكنني، يا حبيبي، أن أصف لك خيبة تلك اللّحظة؟ كانت أوّل مرّة نكبني فيها القدر بعدم تعرّفك إليّ، تلك النّكبة التي رافقتني طوال حياتي وسوف ترافقني في مماتي: أن أظلّ نكرة، أن أبقى عندك دائمًا وأبدًا نكرة. كيف يمكنني أن أصف لك، سقوط الوهم هذا؟ لأنّك، لو تدري، خلال سنتي إنسبروك، حيث كنت أفكّر فيك بشكل دائم، لم يجل بخاطري شيء سوى لقائِنا الأوّل حين أعود إلى فيينا، فتخيّلت، حسب تقلّب مزاجي، الآفاق الأكثر أسى إلى جانب مثيلاتها الأكثر فرحا. كنت، إن جاز لي أن أتكلّم هكذا، قد تصفّحت كلّ شيء في الحلم؛ تخيّلت، في لحظات التّشاؤم، أنّك تصدّني، وتحتقرني لأنّني في غاية التّفاهة، ومنتهى الدّمامة وثقل الظّلّ. واستعرضت كلّ الأشكال الممكنة من سخطك، وبرودك، وعدم اكتراثك، من زوايا نظر منفعلة؛ ولكن حتّى في أحلك ساعاتي، وفي وعيي العميق بتفاهتي، لم أتصوّر هذه اللّحظة، وهي أشدّها هولاً: ألاّ تبدي أدنى انتباه لوجودي. اليوم أفهم ذلك جيّدا - آه! أنت الذي علّمني فهمه!- إنّ وجه فتاة، أو وجه امرأة، هو قطعا شيء متقلّب جدّا عند الرّجل؛ فما هو في الغالب سوى مرآة ينعكس عليها تارة الشّغف، وطورا عبث الطّفولة، وحينًا الملل، وهو يزول بيسر كما تزول صورة من المرآة، ذلك أنّ الرّجل يمكنه أن يضيّع بكلّ يسر وجه امرأة لأنّ السّنّ تُغيّر فيه الظّلال والضّوء، والموضات الجديدة تبرزه بطريقة مختلفة. أمّا المستسلمات فعندهنّ علوم الحياة الحقّ. ولكنّي، أنا، تلك الفتاة الصّغيرة، لم يكن بوسعي أن أفهم أنّك نسيتني، إذ لا أدري

كيف نشأت بداخلي فكرةٌ وهميّة، من فرط الاهتمام بك اهتمامًا دائما لا حدّ له، وهي أنّك أنت أيضًا تتذكّرني دائما، وأنّك تنتظرني؛ كيف كان يمكنني أن أتنفّس لو علمت علم اليقين أنّي لا أعني لك شيئا؟ وأنّ أيّ ذكرى عنّي لم تداعبك مرّةً بلطف؟ إنّ هذه اليقظة الأليمة أمام نظرتك الّتي بيّنت لي ألاّ شيء فيك يتذكّرني، وألاّ خيط من ذكرى يصل حياتك بحياتي، كانت عندي أوّل سقوط على أرض الواقع، وأوّل نذير لمصيري.

لم تتعرف إليّ في ذلك الحين. وبعد يوميْن عندما التقينا مُجدّدًا، شملتني نظرتك بنوع من الأُلفة، ومع ذلك لم أكن في تقديرك الفتاةَ التي أحبّتْكَ وأيقَظْتَ فيها الحياة، بل مجرّد فتاة جميلة في السابعة عشرة من العمر أو في الثامنة عشرة، صادَفَتْكَ في الطّريق قبل يومين في المكان نفسه. نظرتَ إليّ متفاجئًا، لكن على نحو ودود، وقد ارتسمت حول فمك ابتسامةٌ خفيفة. ثمّ مرَرْتَ بجانبي من جديد، وأبطأتَ في سيرك. فجعلتُ أرتعد، وأرتعش في فرح صامت. لو يكلّمني فقط لو يكلّمني! لأوّل مرّة أشعر بأنّني موجودة في نظرك؛ أنا أيضًا خفّفت خطوتي وانتظرتك. وفجأةً، ودون أن ألتفت، أحسستُ بأنّك خلفي؛ حينئذ عرفت لأوّل مرّة أنّي سأسمع صوتك الغالي يكلّمني. كان الانتظار في نفسي أشبه بالشّلل، وخشيت أن أضطرّ إلى التوقّف، لشدّة خفقان قلبي. وصَلْتَ وسِرْتَ إلى جانبي. كلّمتني ببشاشة مرحة، كأنّنا صديقان من زمن. آه! لو كنت تدري من أكون! لم تعلم قَطّ شيئًا عنّي! كلّمتني بأريحيّة رائعة جعلتني عاجزة حتّى عن الردّ

عليك. سرنا معًا على طول الشّارع. ثمّ سألتني ما إذا كنتُ أرغب في تناول العشاء معك، فقبلت. وهل يمكنني أن أرفض لك طلبًا؟

تعشّينا معا في مطعم صغير. أما زلت تذكر أين يوجد؟ كلاّ، فأنت قطعًا لا تميّز تلك السّهرة من شبيهاتها من المغامرات... فيا تُرى من أكون بالنّسبة إليك؟ امرأة من بين مائة، مغامرة في سلسلة مغامرات ذات حلقات لا تُحصى عددًا. ثمّ أيّ ذكرى ستذكرني بها؟ كنت قليلة الكلام، فأن تكون بقربي وأن أنصتَ إليك وأنت تحدّثني، تلك هي السعادة المُطلقة.

لم أشأ تبديد أيّ لحظة من حديثك بسؤال أو بعبارة غبية. لن أنسى أبدًا تلك السّاعة بكلّ امتنان. كنت تستجيب جيّدا لما كنت أنتظره منك بإجلال العاشق لك! كنتَ ودودًا، رقيقًا، بالغ الظّرف، دون فضول، ودون استعجال المداعبات اللّطيفة. أبديتَ لي منذ اللّحظات الأولى قدرًا من الثّقة الهادئة المرحّبة أسَرْتَ به كياني بأكمله، وكأنّني لم أُسلم لك أمري بإرادتي وبكل جوارحي. آه! أنت لا تدري أي عمل رائع أدّيت في ذلك المساء حين لم تخيّب سنوات الانتظار الخمس من مراهقتي!

كان الوقت متأخّرًا، فغادرنا المطعم. عند الباب، أردت أن تعرف هل كنت على عجل أو أنّ لي مُتّسعًا من الوقت. وكيف يمكن أن أخفي عنك أنّي رهن إشارتك؟ أجبتك أنّ لي متّسعًا من الوقت. ثم سألتني، وأنت تُغالب تردّدًا خفيفًا، ما إذا كنتُ أريد أن أرافقك إلى بيتك للدردشة. «بكلّ سرور»، قلت دون أن أراجع نفسي لحظة،

مُعتبرةً ذلك أمرًا طبيعيًّا. لاحظت عندئذ أنّ سرعة موافقتي قد وقعت في نفسك وقعًا ثقيلاً، أو لعلّه كان ممتعا- ولكن، على أيّ حال، كان واضحًا أنك فوجئت. اليوم أتفهّم تعجّبك؛ أعرف أنّ من عادة النّساء، حتّى وإن شعرن برغبة جامحة في الاستسلام، أن يتمنّعن، ويتظاهرن بالهلع، والاستنكار، ويطلبن أن تقع تهدئتهنّ في بداية الأمر، بتوسّلات ملحّة، وأكاذيب، ووعود، وأيمان. أعرف أنّ بنات الهوى المحترفات فقط، والمومسات، يمكن أن يستجبن لهذه الدّعوات ويوافقن تمام الموافقة بكلّ فرح - أو كذلك من كنّ صغيرات، مراهقات ساذجات جدًّا. ولكن في قرارة نفسي (كيف يمكنك أن تشك؟) لم تكن موافقتي سوى إرادتي وهي تعرب عن نفسها، ورغبتي الجامحة، المكبّلة طوال آلاف الأيام، وقد انبلجت فجأة. على كلّ حال، كنتَ مشدوها، وبدأتُ أثير اهتمامك، كنت أحسّ، ونحن نمشي، بأنّك كنتَ تتفحصني، خلال حديثنا، من جانبٍ في نوع من الاندهاش. شعورك، ذلك الشّعور الواثق وثوقا سحريًا من زاوية السّيكولوجيا الإنسانيّة، كان يشتمّ شيئًا خارقًا، ويستكشف أمرًا مُلغزًا في هذه الفتاة الظّريفة اللّطيفة. كانت رغبة المعرفة قد استيقظت لديك، وقد لاحظت، من خلال طريقتك الملتفّة والكيّسة في طرح الأسئلة، أنّك كنت تريد الإحاطة بهذا الأمر الملغز. ولكنّي كنت أتحاشاها. فأنا أُفضّل أن أُعتبَر مجنونة على أن أكشف لك عن سرّي.

صعدنا إلى شقّتك. اعذرني يا حبيبي إن قلت لك إنّك لا يمكن أن تفهم ماذا يمثّل إليّ ذلك الصعود، وذلك المدرج. يا للنّشوة، كم

كنت أشعر بالارتباك، يا للسّعادة المجنونة، تعذّبني، وتكاد تميتني. ما زلت حتى الآن، ما أكاد أذكرها حتّى تدمع عيناي، وإن كانت الدّموع قد نَفِدت منّي. ولكن تصوّر فقط أنّ كلّ قطعة هنالك قد غمرها عشقي، فهي تمثّل رمزًا لطفولتي وانتظاري: الباب الّذي ترقبّتك منه ألف مرّة، والمدرج الّذي طالما تلصّصت فيه عليك وحزرت خطوتك، ولمحتك فيه لأوّل مرة، وعدسة الباب الصغيرة الّتي تعلمت منها سبر أغوار روحي، والسّجاد أمام الباب الّذي جثوت فيه على ركبتيّ، وصرير المفتاح الّذي كان يجعلني أترك متنفضةً مكان إنصاتي. كلّ طفولتي، كلّ شغفي كان عشّهما هنا، في هذا الفضاء الضيّق؛ هنا كانت توجد حياتي كلّها. وها هي تهبّ عليّ كالعاصفة، كان كل شيء، كل شيء يتحقق، وكنت معك! أدخل شقّتكَ، شقّتنا. تصوّر أنّه حتّى بلوغ بابك، - صحيح أنّ لكلماتي معنى عاديًّا، ولكني لا أعرف قولها بطريقة مغايرة- كان كلّ شيء، طيلة وجودي، مجرّد واقع حزين؛ فلم أر أمامي سوى عالم باهت يوميّ، وها أنّ البلد السّحريّ الّذي حلمت به الطّفلة، مملكة علاء الدين، ينفتح. تخيّل أنّ عينيّ قد تثبّتتا ألف مرّة على الباب الّذي أجتازه الآن بخطو مترنّح، ولسوف تشعر -وتشعر فقط، لأنّك لن تدرك ذلك تماما يا حبيبي!- كم ساعة من حياتي تكاثفت في هذه الدّقيقة المدوّخة.

مكثت عندك كامل الليلة. لم يخامرك شكّ في أنّه لم يمسسني رجل قبلك، ولم يداعب جسدي أحدٌ أو رآه. كيف يمكن أن تتوقّع

ذلك يا حبيبي وأنا لا أبدي أمامك أيّ مقاومة، وأزجر كل تردّد من الحياء، فقط كي لا تكتشف سرّ حبي لك، حبّي الذي كان سيخيفك دون ريب، - لأنّك لا تحبّ إلا الطّيش، واللّهو، والعبث؛ فأنت تخشى أن تربط نفسك بمصير. تريد أن تذوق دون قيد وشرط متع الدّنيا كلّها، ولكنك لا تريد التّضحية. فيا حبيبي، إن قلت لك الآن إنّي كنت عذراء حين وهبتك نفسي، أرجوك، افهمني جيّدًا! أنا لا أتّهمك: أنت لم تراودني، ولم تخنّي، ولم تغوني، بل أنا الّتي ذهبت إليك، من تلقاء نفسها، مدفوعة بمحض رغبتها، وارتمت في حضنك، واندفعت إلى مصيرها. كلاّ، لن أتّهمك أبدًا، كلاّ، بل أنا، عكس ذلك، سأشكرك دائمًا، لأنّ تلك اللّيلة كانت غنيّةً جدًّا، ساخنةً بشبقها، طافحةً بالسّعادة. عندما أفتح عينيّ في الظّلام وأحسّ بك إلى جانبي، أتعجّب كيف لا تكون النّجوم فوق رأسي، من شدّة ما بدت لي السّماء قريبة منّي. كلاّ يا حبيبي، لم أندم على شيء قط، لأجل تلك الساعة. ما زلت أذكر، وأنت نائم، أنّي كنت أسمع تنفّسك، وألمس جسدك وأحسّ بأنّي قريبة منك، فأبكي في العتمة من فرط السّعادة.

في الصّباح، غادرتُ باكرًا المنزل على عجل. كان لا بدّ أن أذهب إلى المتجر، وأنصرف أيضًا قبل مجيء الخادم: فلا ينبغي أن يراني. عندما ارتديت ثيابي، وأنا واقفة أمامك، ضممتني بين ذراعيك وتطلّعتَ في وجهي مليًّا. هل هي ذكرى بعيدة غامضة كانت تمور بداخلك، أم أني بدوت لك جميلة وسعيدة مثلما كنتُ فعلاً؟ قبّلتني على فمي. تملّصتُ منك برفق كي أنصرف، فسألتني: «ألا تريدين أن تأخذي

معك بعض الأزهار؟» أجبت بلى. فتناولت أربع وردات بيضاء من مزهريّة الكريستال الأزرق، على المكتب (آه! تلك المزهريّة، أعرفها جيّدًا، منذ نظرتي الخاطفة الوحيدة فيما مضى) وأعطيتني إياها. وظللتُ أيّامًا أرفعها إلى شفتيّ.

قبل أن نفترق، اتّفقنا على موعد جديد. جئتُ، ومرّة أخرى، كان كل شيء رائعا. ثمّ منحتني كذلك ليلة ثالثة. وبعدها قلت لي إنّك مضطرّ إلى السّفر - آه من تلك الأسفار، كم كنت أكرهها منذ طفولتي!- ووعدتني بأن تخطرني بوصولك فور عودتك. أعطيتُك عنواني، لأنّي لم أشأ أن أذكر لك اسمي. حافظت على سرّي. ومن جديد، أعطيتني بضع ورود لحظة الوداع-ورود الوداع!

كلّ يوم، طيلة شهرين، كنت أذهب لأرى هل وصلني بريد... كلاّ، ولِمَ أصف لك العذابات الجهنمية من الانتظار، لِمَ أصف لك يأسي؟ لا ألومك؛ أحبّك كما أنت: متأجّج وسريع النّسيان، سخيّ وخائن؛ أحبّك هكذا، لا شيء إلاّ هكذا، كما كنت دائما وكما أنت الآن. عُدتَ منذ مدّة طويلة؛ نوافذك المضاءة أخبرتني، ولكنك لم تكتب إليّ. لا أملك سطرًا واحدًا منك، حتّى الآن، في ساعتي الأخيرة هذه، لا سطرَ منك، منك أنت الذي وهبته حياتي. ترقّبتُ، ترقّبتُ في يأس، ولكنك لم تتصّل بي، لم تكتب ولو سطرًا واحدًا... ولو سطرًا...

ابني مات البارحة، - كان أيضًا ابنَك. كان أيضًا ابنَك يا حبيبي، ابن تلك اللّيالي الثّلاث، أقسم لك، ولا أحد يكذب في عتمة الموت.

كان ابنَنا، أقسم لك، إذ لم يمسسني رجل منذ تلك الساعات التي وهبتُك فيها نفسي إلى تلك الساعات التي جاءني فيها المخاض. لقد جعلَتْ لمساتُك جسدي محرّمًا على أيّ شخص سواك، ففي نظري: كيف يمكن أن أقسّم نفسي بينك أنت الّذي كان كلّ شيء بالنّسبة إليّ، ورجل آخر عابر يلامس بشكل طفيف حياتي؟ كان ابننا، يا حبيبي، ابن حبّي النقيّ وإهمالك ومرورك العابر، وتقريبًا عدم وعيك، طفلنا، ابننا، طفلنا الوحيد. ولكنّك تريد أن تعرف - لعلّك فزع، أو لعلّك مندهش فقط- تريد أن تعرف يا حبيبي، لماذا أخفيتُ عنك خلال كلّ هذه السّنين وجود هذا الطّفل، ولماذا أحدّثك عنه اليوم فقط وهو مضطجع هنا الآن، نائم في الظّلام، نائم إلى الأبد، جاهز لرحيل ليس بعده إياب أبدًا، أبدًا! ولكن كيف كان بإمكاني أن أخبرك؟ لن تصدّقني أبدًا، أنا الغريبة التي عرضت نفسها، بسهولة في تلك اللّيالي الثّلاث، الغريبة الّتي وهبتك جسدها دون مقاومة، وبتأجّجٍ أيضًا؛ ما كنت لتصدّق أبدًا أنّ تلك المرأة المجهولة الّتي التقيت بها على نحو عابر بقيتْ وفيّةً لك، لك أنت الخائن، -ما كنت لتعترف أبدًا دون حذر بأنّ هذا الطّفل من صلبك! حتى وإن بدتْ لك أقوالي أقرب إلى الصّواب، ما كنت لتقدر أبدًا، على طَرْدِ الرّيبة من داخلك، وكأنّني أحاول أن أنسب إليك، أنت الثريّ، أبوّةَ طفلٍ غريبٍ عنك. كنت ستشتبه في أمري، فتحوم بيني وبينك ظلال ملتبسة متموّجة من الارتياب. لم أرغب في ذلك. ثمّ إنّي أعرفك؛ أعرفك معرفة لا تكاد تضاهيها معرفتك بنفسك: أعرف أن ذلك سيُضنيك، أنت الّذي يُؤْثِر في الحبّ العبثَ، والطّيشَ، واللّهو،

تُصبح فجأةً أبًا، ومسؤولاً فجأة عن حياة شخصٍ آخر. أنت الّذي لا يستطيع أن يتنفّس إلاّ وهو حرّ، كنت ستحسّ بأنّك مرتبط بي بوجه من الوجوه. وكنت ستكرهني بسبب هذا القيد -أعلم أنّك كنت ستفعل ذلك، على الرغم منك. سأشكلّ بالنسبة إليك عبئًا، عبئًا غير مرغوب فيه، ربّما لساعات فقط، أو ربّما لفاصل قصير ببضع دقائق- لذلك أردتك بكلّ كبريائي أن تفكّر فيّ كامل حياتك دون أيّ جزع. أفضّل أن أتحمّل كل شيء على أن أكون عِبئًا عليك، أن أكون الوحيدة، من بين كل أولئك النساء، الّتي تفكر فيها دائما بحبّ، وامتنان. ولكنّك في الحقيقة لم تفكر فيّ قطّ، لقد نسيتني!

أنا لا ألومك يا حبيبي، كلاّ، لا ألومك. اعذرني إن سالتْ من قلمي أحيانًا قطرةٌ من المرارة. اعذرني، أليس ابني-ابننا- ممدّدًا هنا تحت شعلة الشموع المترنحة؟ جمعت كفّيّ ورفعتهما مضمومتين نحو الله ودعوته بالجاني، فقد كانت حواسي مضطربةً ومرتبكة. اغفر لي هذا النّحيب، اغفره لي! أعرف جيّدًا أنك في أعمق أعماق قلبك طيّبٌ وتُنجد من يطلب النّجدة، تساعد الجميع، حتى الغرباء الذين يطلبون إغاثتك. ولكنّ طيبتك شديدة الغرابة، إنّها متاحة للجميع، وكلّ واحد يمكن أن يغترف منها ويملأ يديه؛ طيبتك عظيمة، عظيمة بلا حدّ، ولكنها، اعذرني، سلبيّة. تريدُ أن تُطوَّق، وأن تُحتلّ. مساعدتك، تقدّمها عندما تُطلب منك، عندما يُتضرّع إليك؛ فتمنح سنَدَك بحياء، وضعف لا بسرور. اسمح لي أن أقول لك بصراحة: حبّك لا يذهب إلى الإنسان الّذي يشقى ويتعذّب، بل تفضّل أن

يذهب إلى أخيه الّذي ينعم في سعادة. ومن العسير طلب أي شيء من أناس مثلك، حتى من أكرمهم. ذات يوم، وكنتُ لا أزال طفلةً، أبصرتُ، عبر عدسة بابنا، كيف تتصرّف لتقديم صدقة إلى متسوّل دقّ جرس بابك. أعطيْتَهُ على الفور، بل أعطيته كثيرًا، قبل أن يتوسّل إليك، ولكنّك فعلت ذلك بضربٍ من القلق، وبنوع من العجلة يعرب عن رغبتك في أن تراه ينصرف سريعًا. كأنك كنت خائفًا من النظر إليه وجهًا لوجه. لم أنس مُطلقًا تلك الخشية، وذاك التوجّس الباديَيْن عليك وأنت تمنح صدقتك هربًا من الشكر. لم أَنْسَها قَطُّ. ولأجل ذلك لم أقصدك بتاتًا. ربّما أنجدتني، أعرف ذلك، دون أن تكون على يقين من أنّه ابنك حقًّا؛ ربّما واسيتني، وأعطيتني مالاً، مالاً وفيرًا، ولكن دائما برغبة متبرّمة متكتّمة في إبعاد الأشياء المزعجة عنك. نعم، بل إنّي أعتقد أنّك كنت ستطلب منّي أن أتخلّص من الطّفل قبل أن يولد. وهذا ما كنت أخشاه أكثر من أيّ شيء آخر، فماذا بوسعي أن أفعل لو طلبتَ ذلك منّي، وكيف يسعني أن أرفض لك طلبًا!

لكنّ هذا الطفل كان كلّ شيء لديّ ما دمتُ قد أنجبته منك؛ فهو أنت أيضًا، ولكنّه لم يكن ذاك الكائن السّعيد الخالي البال، الكائن الّذي لا يمكنني الإمساك به، وإنّما هو أنتَ وقد صرتَ، كما تصوّرتُ، ملكًا لي على الدوام، محبوسًا هنا في جسدي، ومرتبطًا بحياتي. أخيرًا أمسكتُ بك؛ وأستطيع أن أحسّ بك في شراييني تحيا وتكبر؛ وقد أتيح لي أن أطعمك، وأرضعك، وأغمرك بالمداعبات والقُبَل، حين تشتعل روحي رغبة. ولأجل ذلك كنتُ، يا حبيبي،

كما ترى، سعيدةً عندما علمت أنّي أحمل منك طفلاً، ولأجل ذلك أحجمت عن إخبارك، لأنّك لم تعد قادرًا على الهرب منّي مرّةً أخرى.

صحيح يا حبيبي، أنّ سعادتي لم تلبث غير أشهر معدودات، مثلما توقّعت ذلك من قبل. فقد مررتُ أيضًا بأشهر طافحة بالهول والعذاب، طغى عليها الاشمئزاز من وضاعة النّاس. لم أحْظَ بأوقات سهلة. فخلال الأشهر الأخيرة من الحمل لم يعد بإمكاني الذّهاب إلى المتجر خوفًا من إثارة انتباه أقربائي، فيُعلمون بدورهم أسرتي. لم أشأ أن أطلب مالاً من والدتي؛ فعشت، خلال الوقت الّذي مضى حتّى ولادتي، من بيع بعض المجوهرات التي كنتُ أملكها. وقبيل الوضع بأسبوع، اختَلَسَتْ غاسلة الملابس، من الخزانة، الكُرونات القليلة المتبقّية لديّ، وهو ما حملني على الذّهاب إلى المستشفى. هنالك، في ذلك المكان الّذي لا يلوذ به عند الضّيق إلاّ أفقر النّساء، المنبوذات، المنسيّات. هنالك، وسط أشدّ أنواع البؤس قرفًا، جاء الطّفل، طفلك، إلى الدّنيا. إنّ ذلك المستشفى مكان للموت؛ كلّ شيء فيه غريب، غريب، غريب. كنّا نتبادل النظرات كغريبات، نحن اللاّتي اضطجعن هناك، وحيدات، مشحونات بكره متبادل، نحن اللاّتي اضطرّهن البؤس والعذاب إلى أخْذِ مكانٍ لهنّ في هذه القاعة ذات الهواء الفاسد، الممتلئة بالكلوروفورم والدّم، وبالصراخ والأنين. كلّ ما يمكن أن يصيب الفقرَاء من إذلال، وإهانات معنوية وجسديّة، قد عانيت منه، في هذا الاختلاط بمومسات ومريضات جَعَلْن من وحدة قدرنا عارًا مشتركا... في هذا الاختلاط بصلف هؤلاء

الأطباء الشّبّان الّذين كانوا يرفعون لحاف السّرير في بسمة ساخرة ويجسّون جسد المرأة الأعزل، بتعلّةٍ علميةٍ زائفة... وفي حضور جشع الممرّضات. أوه! هناك، لا يصادف الحياء البشري إلاّ نظرات تصلبه وكلمات تجلده. اسمك على لافتة، ذاك كلّ ما يتبقّى منك، لأنّ ما يرقد على السّرير ليس سوى كيس من لحم مختلج يجسّه الفضوليّون، ومجرّد موضوع للعرض والدّراسة. أوّاه! إنّ النّساء اللاّتي ينجبن في بيوتهنّ أطفالاً لأزواجٍ في سَعَة من أمرهم، لا يعرفن ما معنى أن تضع امرأة طفلاً وهي وحيدة، ودون حماية، وكأنها على طاولة مخبر طبيّ! ومازلت إلى اليوم، حين أصادف في كتاب عبارة «جحيم»، يخطر ببالي فورًا، ودون إرداة منّي، ذلك الجناح المزدحم، مسلخ العفّة ذاك، حيث تعذّبت كثيرًا، وسط الرّوائح الكريهة، والآنّات، والضّحكات، والدماء، والصّرخات العاتية لنساء مكدّسات.

اعذرني، اعذرني إن حدّثتك عن هذا! ولكن هذه أوّل مرّة أتحدّث فيها، ولن أحدّثك عنه أبدًا، أبدًا. طوال إحدى عشرة سنة لم أنطق بكلمة وعمّا قريب سأصمت إلى الأبد. كان ينبغي أن أصرخ مرّةً فقط، وأصرّح بالثمن الغالي الذي دفعته من أجل طفلي، الطّفل الذي كان كلّ نعيمي وغبطتي، وهو الآن يرقد هناك بلا حراك. لقد نسيتُ تلك السّاعات، منذ زمن بعيد، نسيتها في بسمته، في صوته، وفي تلك السعادة الغامرة؛ ولكنّه الآن مات، وعاد عذابي إلى الحياة، وأنا في حاجة إلى التّرويح عن نفسي بالنّحيب عليه مرّة فقط، هذه المرّة لا غير.

ولكنّي لا أتّهمك أنت؛ الله وحدَهُ، الله وحدَهُ أنزل هذا العذابَ العبثيّ بي. أنا لا ألومك، أقسم لك، ولم أناصبك العداء مُطلقًا وأنا غاضبة. حتّى في الساعة الّتي كان جسدي، يتلوّى فيها من الآلام في غرفة الولادة، وحتّى عندما كان يقطر خجلاً أمام النظرات الفضولية لطلبة الطبّ، بل حتى في اللّحظة الّتي مزّق فيها الألم روحي، لم أتّهمك لحظةً أمام الله، لم آسف قطّ على ليالينا؛ ولم ألُم نفسي مُطلقًا على حبّي لك؛ لقد أحببت دائما اليوم الذي عرفتك فيه. ولو قُدّر لي أن أعبر من جديد جحيم تلك السّاعات، وأنا على علم بما ينتظرني، لأعدت الكرّة، يا حبيبي، ولفعلت ما فعلت، مرّة، وألف مرّة أخرى!

ابننا مات البارحة. وأنت لم تعرفه قطّ. لم تعرفه قطّ ولا حتّى في لقاء عابر، على وجه الصّدفة، لم تقع عليه عيناك وأنت تمرّ. فما إن وضعت ذلك الطّفل حتّى تواريتُ بعيدًا عن أنظارك مدّةً طويلة. وصار شوقي إليك أقلّ إيلامًا؛ حتّى صرت أعتقد أنّي لم أعد أحبّك بالشغف نفسه؛ على الأقلّ، لم يعد حبّي يعذبني كثيرًا كما كان من قبل. لم أشأ أن أقسّم نفسي بينك وبينه، فلم أمنح نفسي لك، أنت السّعيد الذي يعيش خارج حياتي، وإنّما للطّفل الّذي يحتاج إليّ، الطفل الّذي يجب أن أطعمه، ويمكنني أن أعانقه وأغمره بالقبل.

بدا لي أنّي تحرّرت من القلق الّذي قذفتَهُ في روحي، وانتزعتُ نفسي من سوء مصيري، وتخلّصت أخيرًا بفضل هذا الآخر من أناك، ولكنّه كان حقًّا لي؛ ولم يعد يقودني عشقي إلاّ نادرًا، نادرًا جدّا، وفي احتشامٍ أمام مسكنك. لم أكن أفعل إلاّ شيئًا واحدًا: في يوم ميلادك،

أرسل إليك باقة من الورود البيضاء، تماما كتلك الّتي أهديتني إياها عقب ليلة حبّنا الأولى. هل سألت نفسك في هذه السّنوات العشر، أو الإحدى عشرة، من كان يرسلها إليك؟ أتذكّرت، تلك المرأة الّتي أعطيتها ذات مرّة ورودا مماثلة؟ لا أدري، ولن أعرف ردّك أبدًا. أمّا أنا فكان يكفيني أن أهديك إياها سرّا وأن أُحيِي، مرّة في كل عام، ذكرى تفتّح تلك اللّحظة.

لم تعرف قطّ، صغيرنا المسكين. واليوم، ألوم نفسي على مواراته عنك، لأنّك كنت ستحبّه بالتأكيد. لم تعرفه قطّ، الطّفل المسكين، لم تره قطّ يبتسم، حين يفتح جفنيه قليلاً فتُلقي عيناه السّوداوان الذّكيتان - عيناك!- عليّ، على العالم بأسره، نورَهما المشرق البهيج. آه! كان كثير المرح واللطف: كانت كلّ خفة كيانك موجودة في هذا الطّفل؛ وكان خيالك المتّقد المتحرّك يتجدّد فيه؛ كان يجد لذّة عظيمة في اللّهو بشيء مّا، لساعات طويلة، تماما كما كنت تجد لذّة في العبث بالحياة؛ ثمّ تراه يجلس في غاية الجدّ أمام كتبه معقود الحاجبين. كان شبهه بك يكبر كلّ يوم. بل إنّ هذه المراوحة بين الجدّ والمرح، وهي سمةٌ من سماتِك، بدأت تنمو فيه بشكلٍ بادٍ للعيان؛ وكلّما ازداد شبهًا بك ازددتُ حبًّا له. كان يتعلّم جيّدا في المدرسة ويثرثر بالفرنسيّة مثل عقعقٍ صغير؛ كانت دفاتره الأنظف في الفصل؛ وفوق ذلك كم كان مهذّبًا، وأنيقًا في بذلته المخمليّة السّوداء أو في بزّة البحّارة البيضاء! وأينما ذهب كان الأكثر أناقةً؛ عندما آخذه إلى شاطئ «غرادو»[1]،

(1) Grado : شاطئ قرب مدنية غرويتسيا الإيطالية في خليج تريستي. وكان زفايغ قد قام بعدة رحلات إلى إيطاليا في سنتي 1908 و1909، ثم سنة 1921.

كانت النّساء يتوقّفن ليداعبن شعره الأشقر الطّويل، وفي "الشامونيه" عندما يتزحلق بالزلاّجة على المنحدرات، كان النّاس يلتفتون إليه بإعجاب! كان بارع الجمال، بالغ الرّقّة، جذّابًا جدًّا! عندما التحق العام الماضي بأكاديمية تيريزيان الداخليّة، وارتدى زيّه وتقلّد سيفه الصغير بدا كأطفال القرن الثّامن عشر بتسريحة البايج بوي. أمّا الآن فلم يبق له غير قميص نومه، الطفل المسكين، وهو ممدّد هنا، شاحب الشّفتين مضموم اليدين.

ولكن لعلّك تريد أن تعرف كيف استطعت أن أربّيه هكذا في البذخ، وماذا صنعت كي أجعله يحيا هذه الحياة السّاطعة المرحة من حياة الأطفال في المجتمع الرّاقي؟ حبيبي، أنا أكلمك من قلب العتمة. لا أشعر بالخجل، سأقول لك، ولكن لا تفزع: لقد بعت نفسي يا حبيبي. لست بالضّبط ما يسمّى بنتَ الشّارع، مومسًا، ولكنّي بعت نفسي. كان لي أصدقاء أثرياء، وعشّاق ميسورون؛ في البداية سعيت إليهم، ثم صاروا هم الذين يسعون إليّ، لأنّني - أو لم تلحظ ذلك؟- كنت فائقة الحسن. كلّ رجل أبذل له نفسي يحبوني بعطفه؛ كلّهم كانوا ممتنّين، كلّهم تعلّقوا بي، كلّهم أحبّوني... كلّهم، إلاّ أنت، إلاّ أنت، يا حبيبي!

هل تحتقرني الآن بعد أن بُحتُ لك بأني بعتُ نفسي؟ كلاّ، أعلم، أنك لن تفعل ذلك؛ فأنت تفهم كلّ شيء وسوف تدرك أيضًا أنّي فعلت ذلك لأجلك، لأجل نفسك الأخرى، طفلك. فبمجرّد أن لمستُ فظاعةَ الفقر في جناح الولادة بذلك المستشفى؛ عرفت أنّ

الفقير في هذا العالم هو الضّحيّة دائما، هو الّذي نحطّ منه، وندوسه بالأرجل، ولم أشأ -مهما كان الثمن- أن يكبر ابنُك المشرقُ الجميل في القاع، ويختلط بحثالة المجتمع، في الظلام، والشوارع القذرة، وسط الهواء الملوّث لغرفةٍ في خلفية إحدى الشُقَق بإحدى العمارات. لا ينبغي لفَمِهِ الرّقيق أن يعرف لغة المجاري، ولا لجسده الأبيض أن يلتحف بملابس الفقراء الرثّة الكريهة العفِنة. كان لا بدّ لابنك أن يغنم من كلّ شيء، من كلّ الثروات ومن كلّ نعيم في الأرض: كان لا بدّ أن يرتفع، بدوره، ويرتقي إلى مستوى عيشك.

كآن ذلك، يا حبيبي، هو السّبب، السبب الوحيد الّذي دفعني إلى بيع نفسي. وفي نظري، لم تكن في الأمر أيّ تضحية، لأن ما نسمّيه عادةً شرفًا أو عارًا لم يعد يعني لي أيّ شيء. أنت لم تحبّني، لكنّك كنت الوحيد الّذي امتلك جسدي بحقّ، لذا لم أعد أبالي بما يحدث له. مداعبات أولئك الرّجال، وحتّى عشقهم المتوهّج، لم تكن لتبلغ قلبي، رغم أنّي كنت أُقدّر الكثير منهم، إذ أتذكّر، أمام حبّهم الّذي لا أبادله بحبّ، مصيري نفْسَهُ، فأشفق عليهم وأتعاطف معهم. جميعهم كانوا طيّبين معي، دلّلوني، واحترموني، وخاصّة ذاك الكونت الأرمل المسنّ، إذ أنّه لم يدّخر أيّ جهدٍ حتّى يُقبَل الطّفلُ الّذي ليس له أب، ابنك، في أكاديمية التيريزيان. لقد أحبني كما لو أني كنت ابنته. وطلبني للزّواج ثلاث مرّات أو أرْبعًا. كان يمكن أن أكون كونتيسةً اليوم، وسيّدة قصر ساحر في تيرول، أعيش مرتاحة البال، لأنّ الطّفل سيظفر بأبٍ حنون يعشقه، ويكون لي أنا زوجٌ ذو أبّهة، طيّب ورقيق.

لكنّني لم أقبل به، رغم أنه ظلّ يلحّ عليّ بقوّة، وفي أغلب الأوقات، وإن كان رفضي ذاك قد آلمه كثيرًا. قد أكون ارتكبت حماقة، لأني كنت سأعيش الآن هانئة، وآمنة برفقة طفلي الحبيب. لكن -لمَ لا أعترف لك؟- لم أكن أريد الارتباط، كنت أريد أن أضع نفسي على ذمّتك في أيّ لحظة. في أعمق أعماق قلبي، في كياني اللاّواعي مازال ذلك الحلمُ الطّفولي القديم حيًّا، أن تدعوني إليك مرّة، لأعيش معك ولو ساعةً واحدة. ومن أجل تلك السّاعة المحتملة، صددت كلّ شيء، لأكون مستعدّة للردّ على أوّل نداء منك. أوَ لم تكن حياتي كلّها، منذ أن فارقت سنّ الطّفولة، سوى انتظار، انتظار إرادتك؟

وقد حانت هذه السّاعة فعلاً. ولكنّك لا تدري بها. لا علم لك بها يا حبيبي. حتّى في تلك اللّحظة لم تتعرّف إليّ، أنت لم تتعرّف إليّ ولو مرّةً واحدة، لم تتعرّف إليّ مُطلقًا، مُطلقًا! نعم، كثيرًا ما صادَفْتُكَ في المسارح والحفلات الموسيقيّة، في براتر ، في الشّارع - وفي كلّ مرّة كان قلبي يهفو إليك، ولكنّك كنت تمر دون أن تراني. كنتُ مختلفةً تمامًا من حيث المظهر؛ فالطّفلة الوَجِلَة صارت امرأةً، امرأة حسناء، كما يقال، ترتدي الملابس الثمينة ويحيط بها المعجبون. فكيف ستتراءى لك فيّ تلك الفتاة الخجول الّتي رأيتها في الإنارة الخافتة لغرفة نومك! أحيانًا يُصادف أن يحيّيك رجلٌ أكون بصحبته، فتردّ تحيّته وترفع عينيك نحوي، فإذا هي نظرة مؤدّبة لكنّها غريبة، كانت نظرة المعجب بي فحسب، ولم تكن نظرة من تعرّف إليّ. كانت نظرة غريبة، شرسة في غرابتها. وفي إحدى المرّات، مازلت أذكر ذلك

إلى الآن، تحوّل نسيانُك إيّاي، النسيان الّذي كدت أتعوّد عليه، إلى عذابٍ مُحرقٍ. كنتُ في شرفة بالأوبرا رفقة أحد المعجبين، وكنتَ جالسًا في الشّرفة المجاورة. عند الافتتاح، خفتت الإضاءة، فلم أعد أرى وجهك، ولكنّي كنت أحسّ بأنفاسك قريبةً جدًّا منّي، كما أحسستها في ليلة الحبّ تلك، وعلى الحافة المفروشة بالقطيفة الفاصلة بين الشّرفتين، كانت يدك تستريح، يدك الرّقيقة النّاعمة. وفجأةً، تملّكتني رغبةٌ لا تُحدّ في الانحناء نحو تلك اليد الغريبة والعزيزة في آنٍ واحدٍ، اليد الّتي أحسست ذات يوم بعناقها العذب، لأقبّلها بتذلّل. كانت الموسيقى من حولي تنشر أمواجها الخارقة، فتزداد رغبتي ولعًا أكثر فأكثر. وكنت مُكرَهةً على التحكّم في أعصابي حتّى لا أنهض، من فرط القوة الّتي كانت تجذب شفتيّ إلى يدك الغالية. وحالما انتهى الفصل الأوّل، طلبت من مرافقي أن ننصرف. فما عدتُ أطيق أن تكون هناك، بجانبي، غريبًا جدًّا وقريبًا جدًّا، وسط العتمة.

ولكنّ السّاعة الّتي طالما انتظرتها قد حانت، حانت مرّةً أخرى، للمرّة الأخيرة في حياتي التّائهة والسريّة. كان ذلك منذ سنةٍ بالضّبط، في اليوم الّذي تلا عيدَ ميلادك. الغريب في الأمر أنّي لم أكفّ عن التفكير فيك، لأنّي أحتفل بيوم ميلادك مثل عيد. خرجتُ في الصّباح الباكر لأشتري الورود البيضاء وأطلب من المتجر أن يرسلها إليك، مثلما أفعل كلّ عام وفاءً لذكرى لحظاتٍ نسيتَها. بعد الظّهر، ذهبت في نزهة مع طفلي؛ رافقته إلى دكّان حلويات ديمل، وفي المساء حملته إلى المسرح. كنت أريد، بصورة مّا، أن يعتبر هو أيضًا هذا اليوم منذ

صغره، دون أن يعرف دلالته، مثل تقليد روحاني يجب الاحتفال به. وفي اليوم الموالي خرجتُ مع عشيقي آنذاك وبعض شبان آخرين من رجال الصّناعة في برون[1]. كان مغرما بي بطيش، وكان هو أيضًا يريد الزّواج منّي، ولكنّي صددته على غرار الآخرين، صددته رافضةً دون أسباب واضحة، رغم أنّه كان يغمرني بالهدايا وبحبّه. وكان جديرًا هو أيضًا بأن يُحَبّ لطيبته العارمة واحتشامه. ذهبنا معًا إلى حفل موسيقيّ، حيث التقينا بأناس في غاية المرح: تعشّينا في مطعم برينغتراس. وهناك، في غمرة الضّحك والهذر، اقترحت عليه أن نذهب إلى مرقص تَبارين. في العادة، كنت أنفر من هذا النّوع من المحلاّت، لمرحها المصطنع بتأثير من الكحول، ومن سائر أنواع «اللهو»، وكنت أجابه أولئك الّذين يقترحون عليّ هذه الأنواع من التّسلية بالرفض. ولكنْ هذه المرة - خلت أنّ بداخلي قوّة سحريّة لا تقاوم، جعلتني فجأةً ألقي بمقترحي دون وعي، فوافق الجميع في مرح وهرج، -فأحسست بغتةً برغبةٍ عصيّةٍ عن التّفسير، كأنّ شيئًا مخصوصًا كان ينتظرني في ذلك المكان. ولمّا كانوا قد تعوّدوا على ملاطفتي، نهضوا كلّهم، وذهبنا جميعا إلى تَبارين. احتسينا الشمبانيا، وفجأةً استبدّ بي فرح مجنون، فرح يكاد يكون مؤلماً لم يسبق لي أن أحسست به من قبل. شربتُ وشربتُ، وغنّيتُ مع الآخرين أغاني ماجنة، وشعرت بحاجة تكاد لا تقاوم إلىَ الرّقص واللّهو. وفجأةً - كأنّ شيئا باردًا أو حارقًا قد انسكب على قلبي - انتفضتُ: كنتَ

(1) Brünn: الاسم الألماني لمدينة برنو Brno ثاني مدن التشيك بعد براغ، تقع في محافظة مورافيا منشأ جدّ زفايغ.

جالسًا مع أصدقائك في الطّاولة المجاورة، وكنتَ تنظر إليّ نظرة فيها إعجابٌ وشوق، تلك النّظرة الّتي طالما رجّتني حتّى أعماق روحي. لأوّل مرة منذ عشر سنوات، تلتصق عيناك بي من جديد بكلّ قوّة كيانك اللاواعية الشّغوف.

ارتجفت. وكادت الكأس الّتي كنت أمسك بها تقع من يدي. ولحسن الحظّ أنّ رفاقي لم يلحظوا ارتباكي، فقد تلاشى في صخب الضّحك والموسيقى.

كانت نظرتك تزداد اضطرامًا، فتغرقني كلّي في أتون الجمر. لم أدر هل عرفتني أخيرا أم أنّك كنت تشتهيني كما تشتهي امرأةً لم تحضنها بعد بين ذراعيك، كما تشتهي امرأة أخرى، غريبة. تضرّجَتْ وجنتايَ، وصرتُ أستجيب لمن كانوا معي شاردةَ اللّبّ. لعلّك لاحظت كم كانت نظرتُك تُربكني. وبإشارة من رأسك، لم يتفطّن لها الآخرون، طلبت منّي أن أخرج لحظةً إلى البهو. ثمّ دفعتَ فاتورتك متفاخرًا، واستأذنت من أصدقائك وخرجت، بعد أن أومأتَ إليّ ثانية بأنّك تنتظرني خارج الملهى. كنت أرتجف كأنّ بي بردًا أو حمّى. لم أعد قادرة على الإجابة عن أيّ سؤال، وجدتُ نفسي عاجزةً عن السّيطرة على دمي الفائر. وشاءت الصّدفة، في تلك اللّحظة تحديدًا، أن انبرى زنجيّان في رقصة جديدة غريبة، وهما يضربان الأرض بأقدامهما ويُطلقان صيحاتٍ حادّة. انصبّت عيون الجميع عليهما، فاغتنمت تلك اللحظة، ونهضت قائلة لعشيقي إنّي عائدة. وتبعتُك.

كنتَ واقفًا في انتظاري في البهو أمام حجرة الملابس. أضاء

وجهُك إذ رأيتني مقبلة. أسرعت إليّ باسمًا. فلمحتُ على الفور أنّك لم تعرفني، لم تتعرّف إلى تلك الطّفلة الصغيرة ولا إلى تلك الفتاة من بَعدها. ومن جديد، كنتَ، وأنت تمدّ يدك إليّ، إنّما تقدّمها إلى شخص جديد، شخص مجهول. «هل يُمكنكِ، يومًا مّا، أن تخصّيني، أنا أيضًا، بساعة؟» سألتني بنبرة مودّة. أحسستُ من ثقتك في نفسك أنّك تعتبرني من أولئك النّسوة اللاّتي يبعن جسدهنّ لليلة.

«نعم»، قلتُ. كانت كلمة «نعم» المرتجفة نفسها، رغم أنّها طبيعيّة وراضية تمام الرّضى، الكلمة نفسها الّتي أجابتك بها الفتاة الشّابّة، منذ أكثر من عشر سنوات، في الشّارع الغسقيّ. «ومتى نلتقي؟» سألتني، «متى تشاء.» أجبتُكَ. لم يكن يعتريني، أمامك، أدنى خجل. نظرتَ إليّ بشيء من الدّهشة، فيها الحذر والفضول، الدّهشة الّتي أبديتها سابقًا من سرعة موافقتي. «هل ذلك ممكن الآن؟» سألتني في شيء من التّردّد. «نعم»، قلتُ «هيّا بنا.»

أردت أن آخذ معطفي من حجرة الملابس. ثمّ تذكّرت أنّ معطفي ومعطف عشيقي كانا معًا، وأنّ التّذكرة كانت بحوزته. أن أعود لأطلبها منه، دون سبب مقنع، فذلك غير ممكن من جهة. ومن جهة أخرى، أن أعدل عن السّاعة الّتي أستطيع أن أقضّيها معك، تلك السّاعة الّتي اشتهيتها بقوّة منذ سنين، فذاك ما لم أكن أزيده. فلم أتردّد لحظة واحدة: واكتفيت بوضع شالي على فستان سهرتي، وخرجت في اللّيل الضّبابي النّديّ، دون أن أهتم بمعطفي، أو أنشغل بالرّجل الطّيّب الحنون الّذي كان يُعيلني منذ سنوات، الرّجل الّذي

جعلتُه أضحوكةً أمام أصحابه، أتركه هكذا، أنا الّتي كنت عشيقته منذ سنين، من أوّل غمزةٍ من رجل غريب. أوه! كنتُ واعيةً تمامًا، في أعمق أعماقي، بما اقترفته من الوضاعة ونكران الجميل والعمل الشائن في حقّ عشيقٍ مخلص؛ أحسست بأني أتصرف بطريقة مثيرة للسخرية، وأنّي بجنوني كنت أهين إلى الأبد، وعلى نحو قاتل، رجلاً قد غمرني بطيبته؛ كنت أدرك أنّي أحطّم حياتي، ولكن ما جدوى هذه العلاقة عندي، ما جدوى الوجود مقابل لهفتي على الإحساس مرّة أخرى بشفتيك، وأن أسمعك تتكلّم قُربي بحنوّ؟ أحببتك كثيرًا؛ يمكن أن أقولها، الآن وقد مضى كلّ شيء، وقد انتهى كلّ شيء. وأظنّ أنّك لو ناديتني من فراش موتي، فسوف أجد القوة للنهوض والالتحاق بك.

كانت أمام المدخل سيّارة، فمضينا إلى شقّتك. سمعتُ صوتكَ مرّةً أخرى، وأحسستُ بلطفك من جديد، قريبًا منّي؛ كنتُ منتشيةً انتشائي أيّام زمان إذ كنت نهبًا لمثل تلك السعادة الطفولية الملتبسة. في أي حال من الحماس صعدت المدرج من جديد بعد أكثر من عشر سنوات؛ كلاّ، لا، لا أستطيع أن أصف لك، كيف شعرتُ بأنّ كلّ شيء أصبح مضاعفًا، في هذه الثّواني المعدودة، الماضي والحاضر، ولا كيف أنّي، في خضمّ كلّ ذلك، لم أعد أرى شيئًا آخر سواك. لم يطرأ على غرفتك تغيير كبير. بعض لوحات إضافية، وكتب أكثر، وهنا وهناك قطع أثاث جديدة، ولكنّها ما تزال مألوفة بالنسبة إليّ. وعلى مكتبك كانت توجد مزهرية الورود، ورودي، تلك الّتي أرسلتها

إليك قبل يوم، بمناسبة عيد ميلادك، وذكرى امرأة لم تكن رغم ذلك تتذكّرها، ولم تتعرّف إليها، حتّى الآن وهي بقربك، ويدك تمسك يدها، وشفاهك تعتصر شفاهها. ومع ذلك، كنت سعيدة لأنّك تعتني بأزهاري: إذ بذلك كان يرفرف حولك، نفَسٌ من كياني، ويتضوّع عطر من حبّي.

احتضنتني بين ذراعيك. وقضّيتُ معك من جديدٍ ليلةً كاملةً من اللّذّة البهيجة. ولكن، حتّى في عُريي لم تعرفني. استسلمتُ سعيدةً لمداعباتك الخبيرة، ولاحظت أن اندفاعك الشبقي لا يفرّق بين واحدة تحبّها حقًّا وامرأة تبيع نفسها، وأنّك تنساق انسياقا تامّا إلى رغبتك، دون تفكير، مانحًا بسخاءٍ كلّ طاقتك الطبيعية. كنتَ بالغَ الرّقّة، وفائقَ اللّطف معي، مع تلك الّتي صادَفْتها في ملهى ليلي، في منتهى التّميّز، والودّ، كثير المجاملة، إلاّ أنّك كنتَ تُظْهر في الوقت نفسه شغَفًا في التلذّذ بالمرأة. وأنا منتشية مرة أخرى بالسعادة القديمة، لمستُ في شبقك تلك الثنائية التي تميز كيانك، ذلك الشغف العقلي الواعي، الشغف الذي وقعتُ تحت تأثير سحره عندما كنتُ طفلة. لم أعرف مُطلقًا عند أيّ رجلٍ آخر، في لحظة فعل الحبّ، مثل هذا الاستسلام المطلق للّحظة الرّاهنة، ومثل هذا التّدفّق وهذا الإشعاع الفائض من أعماق الكيان - ليخمد بعد ذلك في نسيان مطلق وغير بشريّ تقريبًا. أنا أيضًا نسيتُ نفسي: من أكون، في هذه الآونة، في هذه الظّلمة، وأنا إلى جانبك؟ هل أنا طفلة الماضي المتأجّجة، أمْ أمُّ طفلك، أم تلك الغريبة؟ آه! كلّ شيء كان أليفًا، قد عشته من قبل،

ومع ذلك هو يختلج بحياة جديدة، في تلك اللّيلة الشبِقة! وصلّيت حتّى لا تنتهي أبدًا! ولكنّ الصّبح أقبل. نهضنا من النّوم في وقت متأخّر. دعوتني إلى تناول الفطور معك. شربنا معا في قاعة الأكل شايًا أعدّه في غفلة منّا خادمٌ لا يُرى، وتبادلنا الحديث. حدّثتني من جديد في أُلفةٍ صريحة وودّيّة خاصّة بك، دون أن تُحرجني بأسئلتك، ودون أن تزعجني بفضولك. فلم تسألني عن اسمي ولا عن سكني. مرّة أخرى، لم أكن بالنسبة إليك سوى مغامرة، وامرأة نكرة، وساعة من الشّغف الحميم تذوب في دخان النّسيان، دون أن تترك أثرًا. قلت لي إنّك تفكّر في الذهاب بعيدًا لبعض الوقت، وتريد السفر إلى شمال إفريقيا[1] في رحلة طويلة تدوم شهرين أو ثلاثة. انتفضتُ في خضمّ سعادتي، فقد دوّى في أذني قرع تلك الكلمات: انتهى! قُضي الأمر، وصار طيّ النّسيان! وددتُ أن أرتمي بين قدميك وأصرخ: «خذني معك، لكي تعرفني أخيرًا، أخيرًا بعد كلّ هذه السّنين.» ولكنّي كنتُ أمامك على قدرٍ كبيرٍ من الخجل والخذلان، والضّعف والهوان. وأنا أرتدي ملابسي أمامك، لم أستطع أن أقول سوى: «يا للخسارة!» نظرتَ إليّ وأنت تبتسم وسألتني: «أتشعرين حقًّا بالأسف؟»

استبدّ بي في تلك اللّحظة ما يشبه الانفعال المباغت. وقفتُ، وحدّقتُ فيك مليًّا، ثمّ قلتُ: «الرجل الذي أحبّه هو أيضًا في سَفرٍ دائم» ثم نظرتُ إليك، نظرتُ تحديدًا إلى حدقتيْ عينيْك. «الآن، الآن، سيعرفني»، قلت ذلك في نفسي مرتعشةً متشنّجة بكلّ كياني.

(1) شمال إفريقيا: كان زفايغ قد قام برحلة قصيرة إلى الجزائر العاصمة بين عامي 1908-1909.

ولكنّك لم تجب إلاّ ببسمة، وقلتَ تواسيني: «الناس يعودون مجدّدًا». «أجل»، رددتُ، «إنّهم يعودون، ولكن بعد أن ننساهم.»

ثمّة شيء غريب، شيء جذّاب في الطريقة التي قلتُ لك بها ذلك، لأنّك نهضت على قدميْك، وحدّقت فيّ باندهاشٍ وبكثيرٍ من اللّطف. مسكتني من كتفيّ وقلت لي: «ما هو طيّبٌ لا يُنسى، لن أنساك». وفي الوقت نفسه، غاصت نظرتُك في أعماقي كأنّك تريد أن تسجّل صورتي في ذاكرتك. ولمّا أحسستُ بها تنفذ إليّ، باحثةً، منقّبة، في توق إلى كلّ كياني، ظننتُ، في تلك اللّحظة، أنّ السّحر الّذي كان يمنعك من الرّؤية قد زال. سيعرفني، سيعرفني! كنتُ بكامل روحي أرتعد من تلك الفكرة.

ولكنّك لم تتعرّف إليّ. كلاّ، لم تعرفني مجدّدًا، ولم أكن لحظةً واحدة غريبةً في نظرك، أكثر من تلك اللّحظة، وإلاّ لما كنتَ فعلتَ ما فعلتَ بعدها بدقائق. لقد قبّلتني، قبّلتني بِوَلَهٍ مرّة أخرى. كان عليّ أن أسوّي شعري المشوّش. وعندما كنتُ أمام المرآة - آه! خِلْتُ أنّي سيغشى عليّ من الخزي والذّعر!- رأيتك، خلفي، وأنت تدسّ خفيةً في كمّ معطفي بضع أوراق مالية من فئةٍ كبيرة. كيف تماسكتُ كي لا أصرخ، ولا أصفعك، في تلك اللّحظة، أنا الّتي أحبّتكَ منذ طفولتها، أنا أمّ ولدك، تدفع لِي مقابلاً عن تلك الليلة! مازلت في عينيك مجرّد مُومس لَعُوب من تَبارين، لا غير - ودفعتَ لي، نعم، دفعتَ! لم يكفِ أنّك نسيتني، كان لا بدّ أن تهينني أيضًا.

جمعتُ أدباشي على عجل. كنت أريد الانصراف بسرعةٍ. كنتُ أتألّم بشدّة. التقطتُ قبّعتي التي كانت على المكتب، بجانب مزهريّة الورود البيضاء، ورودي. وفي تلك اللّحظة، استبدّت بذهني فكرة لا تقاوم؛ سأقوم بمحاولة أخرى لإيقاظ ذاكرتك: «ألا تريد أن تعطيني وردةً من ورودك البيضاء؟»، -«بكلّ سرور!» أجبتَ، وأنت تستلّ واحدة من المزهرية. فلاحظت مستدركة: «ولكن، لعلّها مُهداة إليك من امرأة، امرأة تحبّك؟». «ربّما،» قلتَ، «لا أعرف، أُرْسِلت إليّ، ولكن لا أدري ممّن، ولذلك أحبّها كثيرًا.» حدّقتُ فيك. «لعلّها مرسلةٌ من امرأة نسيتها؟» بدوْتَ متفاجئًا. حدّقتُ فيك مليًّا. حدّقتُ فيك مليًّا. «هلاّ عرفتني، هلاّ عرفتني أخيرًا»، كانت نظرتي تصرخ! ولكنّ عينيك تبسّمتا بمودّة، دون أن تفهم. قبّلتني مرة أخرى إلاّ أنّك لم تتعرّف إليّ.

اتّجهتُ بسرعةٍ نحو الباب، لأنّي أحسستُ بالدّموع تتصاعد إلى عينيّ، وهذا ما لا ينبغي أن تراه. في الرّدهة، كدتُ أصطدم بيوهان، خادمك، لشدة اندفاعي عند الخروج. حاد عن طريقي في ذعر وفتح الباب بسرعة كي أخرج. ولمّا نظرت إليه خلال تلك اللّحظة، أتسمعني؟ خلال تلك اللّحظة الوحيدة، نظرتُ إلى ذلك الرّجل العجوز وعيناي تترقرقان بالدموع، فلمحت وميضا يلمع في نظرته. في ظرف ثانية، أتسمعني؟ في ظرف تلك الثانية الوحيدة، تعرّف إليّ خادمك العجوز، وهو الّذي لم يرني منذ طفولتي. وددتُ لو انحنيت أمامه، ولثمتُ يديه امتنانًا! انتزعت بسرعةٍ من كمّي الأوراق الماليّة

التي جلدتَني بها ودسَسْتُها في يده. كان يرتعش، وينظر إليّ في ذعر؛ لعلّه، في هذه اللّحظة، فهمني أفضل ممّا فهمتني أنتَ في كامل حياتك. كلّ الرّجال دلّلوني، كلّهم؛ كلّهم كانوا طيّبين معي؛ إلاّ أنت. أنت فقط نسيتني، أنت فقط، فشلت في أن تتذكّرني!

ابني مات ، ابننا. لم يعد لي الآن في الدّنيا أحد. لا أحد غيرك أحبّه. ولكن من تكون في نظري، أنت الّذي لم يتعرّف إليّ قطّ ، أنت الّذي يمرّ بجانبي كما نمرّ بجانب جدول ماء، أنت الّذي يتعثّر بي كما لو كنتُ حَجرًا، أنت الّذي يسافر دائمًا، ويتركني في انتظاره إلى الأبد؟ ذات مرّة، ظننتُ أنّني أمسكتُ بطائرٍ مثلك، واستطعت أن أحتفظ بك في هيئة طفلٍ. ولكنّه كان ابنكَ أيضًا، فغادرني بقسوةٍ، أثناء اللّيل، وسافر؛ نسِيَني ولن يعود أبدًا! وها أنا وحيدة من جديد، وحيدة أكثر من أيّ وقت مضى؛ لا شيء لي، لا شيء لي منك، لا شيء – لا طفل، ولا سطر، ولا كلمة، ولا ذكرى، ولو أنّ أحدًا نطقَ باسمي أمامك، فسيكون غريبًا على مسامعك. لمَ لا أموت طواعية، ما دمتُ غير موجودة في نظرك؟ لم لا أفارق هذه الدّنيا ما دمتَ قد فارقتني؟ كلاّ، يا حبيبي. أقولها لك مرّة أخرى، أنا لا ألومك؛ لا أحبّ أن تُدخل شكواي الكدر عليك وعلى بهجة حياتك. لا تخف فلن أزعجك أكثر؛ اعذرني، فقد كنت في حاجة إلى الصُّرَاخ، مرّة أخرى، من كلّ قلبي، في هذه السّاعة التّي يرقد فيها ابني، هامدًا، ووحيدًا. كان لا بدّ أن أحدّثك مرّة، ولو مرّة واحدة فقط. ثمّ أعود إلى ظلماتي، في صمتٍ، كما كنتُ دائما بجانبك. غير أنّ هذه الصّرخة لن تبلغك

ما دمت حيّة. ولن تتلقى، إلاّ حينما أموت، هذه الوصيّة، من امرأة أحبّتك أكثر من كلّ النساء الأخريات، ولم تعرفها البتة، من امرأة لم تكفّ عن انتظارك، ولم تطلبها قطّ. لعلّك، ولعلّك حينها ستناديني، وسأخونك. لأوّل مرّة، لأنّي لن أسمع نداءك وأنا في قبري. لن أترك لك صورة، ولا دليلا على هويّة، كما لم تترك لي أنتَ شيئًا؛ لن تتعرّف إليّ أبدًا، أبدًا! ذلك كان قدري في الحياة؛ فليكن كذلك في الموت. لن أدعوك إليّ في ساعتي الأخيرة، سأذهب دون أن تعرف اسمي أو وجهي. سأموت مرتاحة البال، لأنّك لن تشعر بذلك من بعيد. فإن كنت ستعذّب بموتي، فلن يكون بوسعي أن أموت!

لا أستطيع أن أواصل الكتابة... رأسي ثقيل... أطرافي تؤلمني، الحمّى تجتاحني... أظن أنّ عَليّ الاسترخاء في الأسفل. قد ينتهي الأمر عمّا قريب... لعلّ القدر يكون رحيمًا بي مرّةً واحدة فلا أراهم يحملون ابني بعيدًا... لم أعد قادرة على الكتابة. وداعًا يا حبيبي! وداعًا! وشكرًا... لقد كان ما كان، رغم كلّ شيء... وإنّي لأشكرك على ذلك حتّى رمقي الأخير... أنا مرتاحة: بحتُ لك بكلّ شيء، والآن تعرفُ -لا، بل تحزره فحسب- كم أحببتك، ولن تشعر بأنّ هذا الحبّ يشكّل عبئًا عليك. لن تفتقدني -وهذا يعزّيني- لن يتغيّر أي شيء في حياتك الرائعة المتألّقة- لن يزعجك موتي، وهذا ما يريحني يا حبيبي.

ولكن مَن... مَن سيرسل إليك كلّ سنة، في عيد ميلادك، ورودًا بيضاء؟ آه! ستكون المزهرية فارغة، وسينتهي أيضًا هذا النّفَس الواهن من حياتي، هذا اللّهاث من كياني وهو يرفرف حواليك

مرّة في السّنة! اسمعني يا حبيبي، أرجوك... هذا هو الرجاء الأوّل والأخير الّذي أرفعه إليك... حُبًّا فيّ، افعل ما أطلب منك: في كلّ عيد من أعياد ميلادك -وهو يومٌ يفكّر خلاله المرء في نفسه- ابْتَعْ لك ورودًا وضعها في مزهريّتك. افعل ذلك، يا حبيبي،افعل ذلك كما يقيم الآخرون قُدّاسا مرّة في السّنة لأجل فقيدة عزيزة. لم أعد أؤمن بشيء ولا أريد قُدّاسًا؛ أنا لا أؤمن إلاّ بك، ولا أحبّ سواك، ولا أريد أن أستمرّ في العيش إلاّ بك... أوه! فقط يوم واحد من السّنة، وفي صمت بالغ، كما عشت بجانبك... أرجوك، افعل ذلك يا حبيبي... هذا أوّل رجاء أوجّهه إليك، وهو الأخير أيضًا... شكرًا... أحبّك... أحبّك... الوداع.

وضعت يداه المرتجفتان الرّسالة جانبًا. ثمّ ظلّ يفكّر مليًّا. تنامت بداخله في اضطرابٍ ذكرى باهتة لطفلة في الجوار، وفتاة شابّة، وامرأة صادفها في مرقص ذات ليلة، بيد أنّ تلك الذّكرى ظلّت غائمةً، لا معالم واضحة لها، مثل حجر يلمع ويترجرج في قاع الماء، بلا حدود دقيقة. ظلالٌ تُقبل وتُدبر دون أن تشكّل صورة واضحة. كان يقلّب ذكريات مشاعره، ورغم ذلك لم يتذكّر حقًّا. كان كما لو أنه حلم بكل هذه الصور، حلم بها كثيرًا وبعمق، ولكنّها كانت مجرّد أحلام.

وبغتةً، وقعت عيناه على المزهريّة الزرقاء الموجودة أمامه على المكتب. كانت فارغة، فارغة في عيد ميلاده للمرة الأولى منذ سنوات. فانتفض مذعورًا. كأنّ بابًا لا مرئيًّا انفتح فجأةً فمرّ تيّارٌ باردٌ كالجليد قادم من العالم الآخر، ونفذ إلى سكينة غرفته. أحسّ بوجود

شخصٍ ميّتٍ؛ وحُبٌّ خالدٍ لا يموت: وفي أعماق روحه، تفتّح شيء
ما، وأحسّ بأنّه يفكّر في العاشقة اللامرئية كمن يرنو إلى موسيقى
بعيدة نائية.

الأنا بما هو امرأة

«في ألمانيا علّموني أن أقول «أنا» حين أتحدّث عن نفسي»
يُوكُو تَوَادَا

«كثيرًا ما كنتُ أتألّم، أخطأتُ أحيانًا، ولكنّني أحببت. أنا من عاش لا كائنًا مصنوعًا ابتدعه كبريائي ومللي». *كان يمكن لموسي Musset أن يبدأ [على هذا النّحو] رسالة الحبّ هذه، الرسالة الرّائعة المؤثّرة حيث غاص بنا ستيفان زفايغ Stefan Zweig في أغوار الأعماق البعيدة من عشق مدمّر مطلق وِسْواسيّ. كنتُ دومًا منبهرة بقوّة هذا النّصّ، بجماله اليائس، بعمقه ونضجه. هو قصّة قلب كان على أهبة الاستعداد للحبّ والموت، قلب لم يحدّه شيء كان يغنى ببراءة وإلهام، قصّة قلب مشرق وهو يحكي، ويتعرّى أمام رجل معشوق، حياةً بأكملها. نرى الرّاوية تكبر أمام ناظرينا، وتتعلّم الحبّ بكلّ اعتداد، بكلّ سرور، ثمّ نرى الجنون يتربّص بها، ويصيبها إلى الأبد. في سنّ الثّالثة عشرة تقع بجنون في حبّ جارها، الرّوائيّ، وما هو إلاّ شبح ستيفان زفايغ، الفاتن، الطّائش، المتقلّب، الّذي يعبث بالنّساء كما يحبّ ويشتهي. يرسم زفايغ صورة رجل يمكن أن يكون كلّ الرّجال، صورة كاريكاتوريّة من الخفّة والخلاعة لرجل يتصيّد باستمرار طريدة مجهولة. كانت الضّحيّةَ الرّاضيةَ بهذا اللّعب، تلك*

الصّبيّةُ الصّغيرةُ المتيّمةُ برجل ثريّ صعبِ المراس محفوفٍ بالأسرار.
وكانت اللّعبة مثل رقصة الموت رهيبة سرّيّة، مرتجفة كأروع ما
يكون الارتجاف، حيث كانت تلك الصّبيّة تجد لذّةً في النّظر المتأمّل
والانتظار. في هذا الحبّ العنيد الميتافيزيقيّ الكثيرُ من النّقاء الّذي
يكاد يصبح متيقّظًا ممتعًا، مثل سرّ يهدّئ من روعها ويُنشئُها إنشاءً.
في هذا الحبّ صدًى حميمٌ يُرجّع في كلّ واحدة منّا، زفرةً عذبةً مُضنية
رهيبة تقودنا إلى أشدّ شياطيننا انفلاتا. كان هذا الرّجل الّذي لم
يتعرّف إليها مُطلقًا، قد ضاجعها مرارًا وتكرارًا، طوال حياتها، دون
أن «يتعرّف» إليها. هاهنا يتحدّث زفايغ عن كثرة جوانب المرأة، عن
جانب منها، جانبٍ استيهاميّ لا يُؤسر، وشوق الرّجل أمام العذريّة
والمجهول. هي الموسوسة والمازوشيّة، الّتي تحبّ حتّى الموت، حبّا قد
مسّه الجنون، تغوص بنا بكلّ متعة في تباريح قلبها المتأهّب للضّياع.
هي الّتي فقدت أباها، ومافتئت تفتقد لصورة ذكريّة منذ طفولتها،
ستقوم في كلّ طور من حياتها بنقل [ذاك الفقدان] إلى هذا الرّجل
الّذي اختارت أن تُجلّه غاية الإجلال. وحينما كان فرويد والتّحليل
النّفسيّ يبهران النّاس كان زفايغ يرسم ملامح حبّ مدمّر يراقص
الموت. فهو يقول لنا إنّنا لا نمتلك أبدًا أيّ أحد، وإنّ العشق المفترس
من جانب واحد يصيبنا بالجنون، ويقودنا إلى القبر. وحتّى الطّفل
الّذي رزقت به قد اندثر، بل حتّى هبة السّماء هذه قد انتُزعت منها،
مثل جزء صغير من الطّفل كان منها قد مات أيضا. حينها بدت مثل
كائن جُعل للأضحية، نصفه امرأة، ونصفه شيطان، قد رضي بمصيره
بكلّ عظمة واعتزاز. فظلّت حرّةً إلى الأبد أمام الرّجل، لأنّها كانت

تلك الّتي اختارت مصيرها. تلك الصّبيّة الصّغيرة السّاذجة، ثمّ تلك المرأة الشّابة وهي على شفا العُصاب، قد تركت لحبيبها المحرّم ورودا ومزهريّة فارغة. لا وجود عنده لخطيئة لأنّه ينسى، فهي مجرّد ذكرى عابرة فحسب لوجه وباقة. وهي تكاد تكون مثل راهبة تعشق إلهها عشقًا لا حدود له، وتلد دون ألم ودون إثم. فتظلّ صورة لم تُنجّس طاهرة أمام الرّجل، وتتقدّم بكلّ فرح إلى الأبديّة. هي مخلوق لطيف رقيق خيّمت عليها أجواء المأساة القاتمة، تلك الّتي رسمها زفايغ لنا بحسّ مرهف. اختارت كائنًا طائشًا تشابك مع روحها المعطوبة، ورضيت دون مقاومة ودون أسف بهذه المعركة الّتي شهرتها على نفسها. هي بطلة جديرة بهنري جامس، مثل «وحش في الأدغال»، تثيرنا وتبتسم لنا. فحين لا نتعرّف إلى أنفسنا لا يتعرّف إلينا أحد.

***

آثرنا أن نصدّر هذا التّقديم بنصّ كتبته الممثّلة الفرنسيّة إيلزا زيلبارستاين[1]، بحساسيّة امرأة أرادت أن تتقمّص شخصيّة البطلة في قصّة «رسالة من مجهولة» على خشبة المسرح، فتكسو ظلالها نورًا وتعير طيفها الخفيّ جسدًا حيًّا من لحم ودم. غير أنّها لم تفعل في النّهاية شيئا سوى أنّها رسمت، بأسلوب متداعٍ، بورتريه لامرأة شَحَنَتْهُ بسماتٍ ودلالاتٍ تراجيديّة ممكنة، هي في النّهاية سمات وليدة

(1) «إلى المجهولة» هو عنوان نصّ المقدّمة الّتي خصّت بها إيلزا زيلبارستاين Elsa Zylberstein الطّبعة الجديدة لقصّة «رسالة من مجهولة» الّتي أصدرتها دار ستوك Stock سنة 2009، ونشرتها «المجلّة الأدبيّة»، العدد486، ماي 2009، ص76. وقد عرّبناه كاملاً.

القراءة، ودلالات من ثمار الانفعال الجماليّ الخاصّ بقصص الحبّ. فعندما تقول إيلزا زيلبارستاين «*في هذا الحبّ صدى حميم يُرتّجع في كلّ واحدة منّا، زفرة عذبة مضنية رهيبة تقودنا إلى أشدّ شياطيننا انفلاتا*» فإنّ هذا الكلام لا يعرب عن انفعال نفسيّ ذاتيّ مؤلم حقيقيّ، وإنّما يترجم انفعالاً قد تولّد بفضل الفنّ القصصيّ ومزيّته. ولأجل ذلك كان انفعالاً جماليًّا محضًا. فخارج ذلك الفنّ يعسر على المرء أن يخوض تلك التّجربة الجماليّة دون وساطة القصّة أو غيرها من أجناس الأدب والفنّ. فتلك الدّموع الغزيرة الّتي سالت من عيون المتفرّجين وهم يتابعون **جيني** *Jenny*، بطلة فيلم **قصّة حبّ** *Love story*، وهي تحتضر بين أحضان **أولفر** *Oliver*، حبيبها الحزين، لا يمكنها أن تسيل إلاّ في ظلمة قاعات السّينما ونور شاشاتها السّحريّ. وهي في النّهاية دموع استدرّتها قوّة الحبكة القصصيّة الخاصّة بقصص الحبّ. هذا النّوع من القصص قد استرعى انتباه إمبرتو إيكو *Umberto Eco*، لمّا علّق في كتابه الطّريف **«من السّوبرمان إلى الإنسان الأرقى»**[1] على فيلم **قصّة حبّ** *Love story*، تعليقًا بيّن فيه بإجمال علاقة القصّ بكيمياء الأهواء. فإن كان من المستحيل، في زعمه، أن نتذوّق طعم الملح إذا كنّا نأكل حلوى من عسل، فلأنّ الكيمياء لا تُخطئ أبدا وإن بلغت قدرات المرء على التّحكّم في حواسّه درجات عالية. وكما أنّ الكيمياء تجعل كلّ الأفواه السّليمة تحسّ بحلاوة الحلوى في مذاقها

(1) انظر:

Umberto Eco, (1993) *De superman au surhomme.*, Paris, Bernard Grasset, p13.

فكذلك للعواطف والأهواء كيمياء خاصّة يمكن إثارتها وتهييجها بقول معلوم أو نظم مخصوص. ففي التّراجيديا مثلاً لا يحدث التّطهير في نفس المتفرّج من إحساسي الشّفقة والخشية من تلقاء نفسه، وإنّما بجعل المتفرّج يتعاطف مع البطل ويتفاعل مع ما يجري له على نحو انفعاليّ ومتوقّع. ذلك أنّه تمّ بناء ذلك التّعاطف داخل الحبكة من خلال نوعية الأحداث المدمّرة للأبطال والفاجعة في الآن نفسه. فما يسمّيه إيكو على سبيل الاستعارة بـالكيمياء، إنّما هو الحبكة الجيّدة البناء والتّركيب، تلك الّتي تُحدث في نفس المتفرّج أو القارئ الفرح أو الحزن، الهلع أو الشّفقة، الضّحك أو البكاء...

غير أنّ استعارة إيكو الكيميائيّة لا يمكن قبولها حرفيّا، لأنّنا نحترز من الاستعارات الّتي تخفي أحيانًا من القياس ما يغالط، ومن التّمثيل ما يخدع. فالكيمياء الطّبيعيّة لا تماثل الكيمياء الثّقافيّة. فإن كان من المستحيل أن تكون النّار حارقة في الصّحاري وبردا وسلاما في بلاد الأسكيمو فلأنّ الظّواهر الطّبيعيّة واحدة عند كلّ البشر في كلّ الثّقافات والأزمنة والأمكنة. أمّا العواطف والأهواء الّتي تولّدها بعض الأشكال الفنّيّة، كالتّراجيديا أو الكوميديا...، في الثّقافة [أ] فإنّها قد تولّد في الثّقافة [ب] انفعالات أخرى وعواطف غير متوقّعة. فقصّة حبّ تنتهي بموت العاشقين أو أحدهما قد تبكينا اليوم مثلما أبكت قصّة جيني وأولفر ملايين البشر في العالم. ولكنّنا في المقابل لسنا على يقين تامّ أن تكون قصّة الحبّ هذه قادرة على إبكاء جمهور العرب القديم ممّن كان يقبل على أخبار العشّاق ومصارعهم. فما كان ينتظره ذاك الجمهور من هذه الأخبار والقصص أشياء

أخرى غير إثارة العواطف واستدرار الدّموع. فقصّة الغرام في ذلك الزّمان هي ذريعة لقول الشّعر والغزل بالأنثى والكلام عمّا لا يباح فيه كلام. ولكنّها لا تستجلب بالضّرورة تعاطف السّامعين لأنّ قصص العشّاق آنذاك، ومن ورائها القصص العربيّ، تظلّ تمثّل نوعا مخصوصا من القصص اللاّنفسيّ *apsychologique*.

ولكن إذا كان مفهوم التّعاطف واردا دائما وأبدا في أقاصيص العشق والغرام فإنّه لا يفضي بالضّرورة إلى تحريك كيمياء العواطف والأهواء عند كلّ النّاس. فلكي يبكي السّامع أو المتفرّج على أحد العاشقين ينبغي أن يكون متشبّعا بمواضعات التّقبّل الأدبي في الثّقافة الغربيّة ومغمورًا بتصوّراتها الفردانيّة الّتي تولي اهتمامًا كبيرًا بذاتيّة الفرد. فقصّة حبّ *Love story* وما شابهها هي قصص مجنّدة لإثارة مشاعر معيّنة وتربيّة الأفراد بتغذية الإحساس بالذّات، والوعي بالأنا، وحملهم على فحص الضّمير باستمرار. وهذه الأحاسيس لا يمكن أن تنشأ، في رأي بعض علماء الاجتماع من قامة نوربرت إلياس *Norbert Elias*، إلاّ في المجتمعات الّتي بلغت فيها العقلنة درجة عالية، كان فيها مسار دولنة *L'étatisation* الأفراد، ليدركوا ذواتهم على أنّها نفوس مستقلّة، متوازيا مع اقتصاد السّوق الحرّ.

***

هذا الوعي الحادّ بالأنا بلغ عند ستيفان زفايغ ذروة نضجه الجماليّ لمّا استطاع ترجمته بلُغةٍ سرديّة تؤكّد ما ذهب إليه ريكور *Ricœur* من أنّ «[...] الإنسان كائن يفهم نفسه بتأويلها، والصّيغة الّتي يؤوّل

بها نفسه، إنّما هي الصّيغة السّرديّة»[1]. أَوَ لَمْ يذكر زفايغ في مقدّمة كتابه «عالم الأمس، ذكريات أوروبّي»: «لم أُولِ مُطلقًا أهمّية كبرى لشخصي بما يجعلني أشعر بالحاجة إلى أن أقصّ على الآخرين قصصا صغيرة من حياتي. كان ينبغي أن أعاين الكثير من الحوادث، وأتحمّل ما لا يحصى ولا يعدّ من الكوارث والمِحَن أكثر ممّا يمكن أن يتحمّله جيل واحد، قبل أن أتجلّد وأشرع في تأليف كتاب يكون أناي الخاصّ شخصيّته الأساسيّة، أو يكون في مركزه، إن رمنا الدّقّة»[2].

غير أنّ هذا الفهم السّردي للذّات قد تميّز عند زفايغ باستعمال فنّ القصّة على نحو مخصوص تجلّى في طريقة أبطاله في استخدام ضمير المتكلّم «أنا». وهو ضمير غير موسوم بمقولة الجنس، ولذلك هو لا يؤنّث ولا يذكّر بخلاف ضمائر المخاطب والغَيْبَة. فكلّ من تكلّم بهذا الضّمير يتنكّر جنسه ونوعه، فلا نعرف إن كان المتكلّم ذكرًا أو أنثى، إن كان رجلاً أو امرأة. فهو يحتاج إلى السّياق حتّى يتخصّص. فعندما نقرأ في قصّة زفايغ «رسالة من مجهولة» هذا الكلام الّذي دشّنت به البطلة رسالتها «**ولدي مات أمس. صارعتُ الموت ثلاثة أيام وثلاث ليال عسى أن أنقذ ذلك الكائن الصّغير الغضّ**» سيجد القارئ نفسه

(1) انظر، مقالة: «القصّة ومنزلتها في التّحليل النّفسي»، «*Le récit: sa place en psychanalyse*» من كتاب. Paul Ricœur, *Écrits et conférences*1, *Autour de la psychanalyse*, Paris, «La couleur des idées», Éditions du Seuil, p 286. حيث ذكر هذه العبارة:
«[...] l'homme est un être qui se comprend en s'interprétant et le mode sur lequel il s'interprète est le mode narratif».

(2) انظر،
Stefan Zweig, *Le Monde d'hier, Souvenirs d'un Européen*, Traduction nouvelle de Serge Niémetz, Paris, Éditions Belfond, p4.. والإبراز إبرازنا.

مضطرًّا إلى انتظار الجملة الموالية «بقيت جالسة عند رأسه أربعين ساعة» حتّى يعلم أنّ هذا الّذي كان يتكلّم مستعملا ضمير «أنا»، إنّما هو امرأة. ولكن إذا علمنا أنّ مؤلّف هذه القصّة هو ستيفان زفايغ نفسه فإنّنا نتساءل: على من يعود حقًّا هذا الضّمير؟ زفايغ أم المرأة المجهولة؟ فهذا الّذي يكتب قصصا ليفهم ذاته مستعملا ضمير المتكلّم «أنا»، إنّما يعرض علينا أناه بما هو آخر. وإذا كان هذا الآخر امرأة، صار «أنا» زفايغ في هذه القصّة، على الأقلّ، «امرأة»، وأصبح «أناه بما هو آخر» «أنا بما هو امرأة». ويمكننا أن نتساءل: ما الدّاعي الّذي دعا زفايغ إلى أن يجعل هذا الآخر، أو «أناه بما هو آخر» يتقمّص شخص امرأة نكرة مجهولة الهويّة؟

يمكن أن نجيب بطرق كثيرة، ولكن من يقرأ قصص زفايغ، خاصّة القصص الّتي تكون البطلة فيها امرأة كقصّة «الخوف» أو «أربعة وعشرون ساعة من حياة امرأة»... لا بدّ أن يستحضر سؤال فرويد المحيّر: «ماذا تريد المرأة؟»، أو تشبيهه الشّهير لعالم المرأة بـ«القارّة السّوداء»، بل لا بدّ أن يستحضر صداقة زفايغ الحميمة بفرويد الّذي أعرب في بعض رسائله عن إعجابه الكبير بفنّ صاحبه وببعض قصصه كـ«أربعة وعشرون ساعة من حياة امرأة»، و«دمار قلب»، وخاصّة «فوضى الأحاسيس»، الّتي أطال الحديث عنها في إحدى الرّسائل سنة 1926، وقدّم في شأنها، قراءة تحليليّة نفسيّة، امتدح فيها زفايغ على دقّة تصويره للمثليّة الجنسيّة المكبوتة. ولا عجب في ذلك، فقد كانت أفكار الرّجلين متقاربة في الكثير من

الأمور، خاصّة ما تعلّق منها بعصرهما الّذي عرف حربين عالميّتين رهيبتين تهاوت فيها الإنسانيّة إلى حضيض البربريّة الّتي وصفها الرّجلان بعبارة «البهيميّة المخيفة» *«l'effrayante bestialité»*. إلاّ أنّ أبرز المسائل الّتي تجلّى فيها تقاربهما هو موضوع الأنا. فإذا كان أعظم اكتشافات فرويد في مجال التّحليل النّفسي هو تحديدًا هذا الأنا فلأنّ هذا «الأنا» في التّصوّر النّفسي الجديد قد فَقَدَ مركزيّته بفقدان سيادته على الوعي، فلم يعد «سيّدا في بيته»، حسب عبارة فرويد الشّهيرة، إذ زاحمته في سكنى ذاك البيت ذات أخرى سمّاها لاكان *Lacan* «ذات اللاّشعور». هذا الفقدان يسمّيه فرويد جُرحًا نرجسيّا، أو الجرح النّرجسيّ الثّالث بعد جرحي كوبرنيك (لمّا فقدت الأرض مركزيّتها في النّظام الفلكيّ الحديث) وداروين (لمّا فَقَدَ الإنسان، درّة الخلق، مركزيّته في منظومة الأنواع والأجناس الحيوانيّة المختلفة). في هذا السّياق يمكن أن يُفهم لغز المرأة، أو «ماذا تريد المرأة؟»، لأنّه لغز مرتبط عند فرويد باللاّشعور، بانفتاح «المشهد الآخر» الغوريّ. ولعلّ فرويد ما استعار أغوار المرأة الّتي لا تُسبر، إلاّ لوصف أغوار اللاّشعور. ولذلك شبّه أغوارها المعتّمة بـ«القارّة السّوداء». وهي صورة لطوبوغرافيّة اللاّشعور، لفضاء انعدمت فيه كلّ العلامات والأمارات، وزالت منه خرائط الطّريق، فاستحالت معرفته بموازين العقل والعلم السّائدة آنذاك.

***

في هذا المناخ الفكريّ الّذي ***«كان فرويد والتّحليل النّفسيّ يبهران النّاس»*** فيه، اختار زفايغ من جهته الغوص في ***«أغوار الأعماق البعيدة»***

من تلك «القارّة السّوداء» بواسطة قصصه، خاصّة قصّة «رسالة من مجهولة» الّتي رسم فيها زفايغ «*ملامح حبّ مدمّر يراقص الموت*». فهذه الرّسالة هي رسالة حبّ. وهي تمثّل بخصائصها التّلفظيّة ما يسمّيه رولان بارط بـ «خطاب العاشق» الّذي خصّص له ندوتين في الكولاج دي فرانس، نشر من دروسها في حياته كتابه «*مقاطع من خطاب عاشق*». وهو يعلّمنا، متحدّثا عن خاصّ خواصّ هذا الخطاب، أنّ الحبّ هو بالدّرجة الأولى خطاب، وأنّ الخطاب ليس «شيئا آخر» ثانويّا، أو مجرّد زيادة وديكور يضاف إلى الحبّ، بل الحبّ هو خطاب الحبّ ذاته، والعاشق المحبّ هو خطابه. وهو يعتمد في بناء هذا التّصوّر على أرشيف هائل من قصص الحبّ اختار منها نصّ غوته الشّهير «آلام الفتى فارتر». ولكن هل يوجد بين قصص الحبّ فارق؟ ألا تقصّ جميعا كيف ينشأ في البداية الهوى في قلب العاشق/ ـة، ثمّ كيف ينتهي في آخر المطاف بالموت، بـ «مصارع العشّاق»؟ نعم هي قصص متشابهة، إلاّ أنّها على تشابهها لا تخلو من بعض الاختلاف. أوَ لم يقل الشّاعر الألماني هنريش هاين *Heinrich Heine*: «هاهنا قصّة قديمة/ إلاّ أنّها تبدو دائما جديدة». قد تبدو «رسالة من مجهولة» مجرّد «قصّة قديمة» كانت وليدة التّفاعل النّصّي، أو التّناص، مع قصص الحبّ السّابقة، إلاّ أنّها وإن كرّرت مسار العاشق، الّذي يبدأ ببداية الحبّ وينتهي بنهايته، «تبدو جديدة». ولعلّ مأتى جدّتها أنّها تؤكّد أنّ مسار العاشق هذا، الثّابت، أو يكاد، في كلّ القصص يتجدّد كلّما انبرى عاشق يتحدّث عن تجربة عشقه الفريدة. فتشابه كلّ قصص الحبّ لا يقتل فرادة كلّ واحدة منها. وهذا الفريد هو

حقًّا ما لا يتكرّر. ونحتاج للإحاطة به إلى أن نعيد الحديث عن هذه التّجربة كأنّها لم تحدث من قبل. فما يتجدّد في كلّ قصّة هو خطاب العاشق، إذ في ذلك الخطاب، وبذلك الخطاب فحسب، يكون الحبّ.

***

هذه القاعدة تؤكّدها قصّة «رسالة من مجهولة». فالحبّ في تجربة هذه المرأة سرّ يمنع البوح به، إذ بذاك الامتناع يظلّ سرّ الحبّ مكتومًا مكنونًا. ولكن ما إن باحت به العاشقة في الرّسالة، وصاغته في خطاب حتّى آذن ذلك بنهايته. فبالبوح يكون الحبّ، ولكن بذاك البوح يموت العاشق. فالكلمة في قصص الحبّ قاتلة مميتة، كلّما باحت وقصّت وهتكت سرّ الحبّ كانت نهاية العاشق وشيكة قريبة. فقصّة الحبّ تروي البداية وتقصّ النّهاية، ولكنّ خطاب العاشق شيء غير قصصيّ، وإن كان مقطعا، يطول ويقصر، من قصّة حياة العاشقـ/ـة. هو خطاب الذّات وهي في آخر لحظاتها. فالقصّة تُحيي دائما، وذاك قانون الحكاية في ألف ليلة وليلة، وعند شهرزاد على الأقلّ. أمّا خطاب العاشق، فهو بمثابة عمل حداد، لا تتشبّث فيه ذات العاشق بموضوع عشقها على نحو ماليخوليّ، وإنّما هي تسعى إلى الخلاص منه بفضح سرّ الحبّ، بتحويل ذاك السّريّ الصّامت، وما لا ينقال فيه، إلى شيء مباح قوله، ومستباح دم قائله. فقانون هذا الخطاب: تكلّم ثمّ مت. هذا القانون، أو هذه القاعدة، تذكّرنا بها «رسالة من مجهولة». فهي تُعلمنا أنّه في اللّحظة الّتي تصل فيها الرّسالة إلى موضوع العشق، إلى حبيبها، تكون هي، كاتبة الرّسالة ومرسلتها، في عداد الأموات. وعلى هذا النّحو ينبغي أن نقرأ هذه

الرّسالة في زمنين مُرجأيْن لا يلتقيان، يقتضي كلّ زمن إمّا غياب العاشق أو غياب المعشوق.

يقتضي زمن القراءة غياب العاشق أو موته. فقراءة الرّسالة، بل بمجرّد قراءة الرّسالة، ينشأ زمن القراءة، زمن ما بعد الموت، زمن جنائزيّ، لأنّ المراد من القراءة هو تحويل العاشق إلى «فقيد»، تتجدّد ذكراه حتّى يبقى ويدوم. فالذّكرى استحضار الميّت لتجديد الغياب. وفي الاستحضار شهادة بأنّ العاشقَ الفقيدَ كان شهيدَ الحبّ. ولكن في تلك الشّهادة تسكن رغبة شديدة في أن يظلّ العاشق حيًّا يُرزق بذكره. وتلك هي وظيفة قصص الحبّ، تخليد شهداء الحبّ بتكرار عمل القصّ تكرارا لا يُقصد منه استعادة ذكرى العاشق الفقيد، وإنّما الاحتفاء بخطاب العاشق. فعبارة العاشق تقرأ دائما في حفل جماعيّ جنائزيّ كانت مؤسّسة الأدب، ثمّ السّينما، تنهض بطقوسه.

أمّا زمن الكتابة فزمن القتل، لأنّه زمن الانتحار لمّا أباح العاشق دمه بالبوح، بالكلمة الّتي تَكْلِمُ فتجرح، بالكلمة الّتي تميت ولا تحيي. فالعاشق لا يكون عاشقًا إلاّ إذا تكلّم، وإذا تكلّم مات وفات. فموت العاشق شهادة بالمعنيين، شاهد وشهيد: شاهد بالكلمة على أنّه عاشق، وشهيد بموته لأنّه تكلّم فلم يصن سرّ الحبّ، فباح وأباح دمه.

وقد اتّخذ البوح من الرّسالة، في هذه القصّة، شكلا لعبارته، وقديما اتُّخِذ الشّعر. ولأمر مّا اقترن البوح في جميع أشكال عبارته بالموت. تقول هذه المرأة العاشقة المجهولة: «**فإن كتب لي أن أعيش، فسوف أمزّق هذه الرّسالة، وأستمرّ في سكوتي، كما سكتّ من قبل.**

ولكن إن بلغتك وكانت بين يديك، فاعلم أنّ ميّتةً تروي لك قصّة حياتها، حياتها الّتي نذرتها لك، من ساعة وعيها الأولى إلى السّاعة الأخيرة». فهذه المرأة عاشقة لا لأنّها نذرت حياتها لحبيبها «من ساعة وعيها الأولى إلى السّاعة الأخيرة»، وإنّما هي عاشقة لأنّها تعي أنّ السّاعة الأخيرة من حياتها قد أزفت. وهي السّاعة الأخيرة أيضًا لأنّها انتهكت قانون الصّمت. فهي عاشقة ميّتة منذ أن بدأت تقصّ وتكتب رسالة موتها. والموت هو هذا الاعتراف الأخير بلحظة العشق الأولى. وهي لحظة لا تطيق نور الكلمة، لأنّ النّور يفضحها. وبفضيحة النّور تكون الكلمة. وبهذه الكلمة/ الموت، الكلمة الّتي لا تهب الحياة، يرتسم اقتصاد العبارة في خطاب العاشق. وهي عبارة لا تدور في سوق المبادلات اللّساني من أجل التّبادل، أو الاستهلاك العمومي لقصص الحبّ، وإنّما هي تدور لتقرأ في شكل جنائزيّ، بطقس احتفاليّ، تذكّر بأنّ الحبّ كلمة لا تهب الحياة، بأنّ الحبّ هو وجه من وجوه الموت، بل الحبّ هو شمس الموت السّوداء، إذا أسفرت خلّفت وراءها جثّة العاشق، هذا الشّيء الّذي سقط، شيء العشق الّذي لا تصنعه الكلمة بالموت إلاّ لتخلّده. فالكلمة في الحبّ لا تميت إلاّ لتحيي. ولا تَحيَى إلاّ في الذّكرى، ذكرى مصرع العاشق وسقوطه.

* * *

والمتأمّل في «رسالة من مجهولة» لا بدّ أن يسترعي انتباهه هلع البطلة الدّائم من النّسيان، من بقائها مجهولة، من عدم التّعرّف إليها. فحبيبها، في كلّ مرّة تقترب منه، لا يتذكّرها، بل كلّما اقتربت منه

ضرب النّسيان على عينيه غشاوة كثيفة. وهي لا تقترب منه إلاّ في اللّيل. أسلمته نفسها في المرّة الأولى وهي شابّة عذراء لم يمسسها رجل، وأسلمته نفسها مرّة أخرى وهي امرأة قد أحاط بها الرّجال، فلم يتذكّرها، ولم يتعرّف إليها أبدا. هذا الإصرار على النّسيان واستحالة التّذكّر من جهة الحبيب، وشوق المرأة المجهولة إلى أن تظلّ مجهولة قابعة في ظلال النّكران، إنّما هو إصرار لافت للانتباه. لأنّه أسلوب زفايغ في صناعة سرّ الحبّ. ولكن ما الّذي يخفيه السّرّ؟ تقول ماري جوزي موندزان: «لا يُخفي السّرّ الحقيقة أبدا، ولكنّه يحجب أكذوبة، وتنهض إستراتيجية السّرّ على إرادة مخادعة الآخر». فهل يخفي السّرّ الحقيقة أم يخفي أكذوبة؟

لا توجد في سرّ الحبّ حقيقة ولا أكذوبة، وإنّما مجرّد لعبة هي لعبة الخفاء والظّهور، الشّبيهة بلعبة الفورت – دا *Fort-Da* كما سمّاها فرويد في بعض ما كتب. وليس النّسيان والنّكران سوى وجه من وجوه هذه اللّعبة الّتي اتّخذت من «الاسم» موضوعا للّعب. فكاتبة الرّسالة مجهولة، لأنّها بكلّ بساطة لا تحمل في عالم القصّة اسما ولا توقيعا ولا إمضاء، ولا دليلا يستدلّ به عليها. وهذا الكبت المستمرّ للاسم هو ما كان يصون سرّ الحبّ ويجعل منها امرأة عاشقة. والاسم المصون هاهنا اسمان: اسم العاشقة واسم المعشوق. أمّا اسم المعشوق فهو سرّ العاشقة: «**أذكر اسمك. منذ تلك اللّحظة الأولى، تلك اللّحظة الفريدة، صار اسمك عندي مقدّسا، بل أمسى سرّي**»، وأمّا اسم العاشقة فهو سرّ القصّة «**أعطيتك عنواني، وأين أقيم،**

لأنّي لم أشأ أن أذكر لك اسمي. حافظت على سرّي». وقد استمرّ سرّ اسمها مصونا إلى النّهاية، أي حتّى بعد موتها، وبإرادة منها: «لا أريد أن أدعوك إلى ساعتي الأخيرة، أنا ذاهبة دون أن تعرف اسمي ولا وجهي»، لأنّ ما كانت ترغب فيه حقًّا لا يتعلّق بمعرفة اسمها، وإنّما بالتّعرّف إلى رسمها. فما كانت تطلبه دون أن تدركه هو تشوّقها إلى أن ترفع الغشاوة من عيني عاشقها اللّيليّ، فيذكرها. كانت تريد أن يتعرّف إليها. ولمّا كان موضوع الشّوق هو التّشوّق إلى المستحيل، كانت استحالة التّعرّف إليها في الحياة والممات هو ما سعت إلى بنائه قصّة «رسالة من مجهولة». ولكن كيف؟

***

تضعنا هذه القصّة أمام عاشق جعلته العاشقة منذ طفولتها في موضع الأب الغائب، الّذي غيّبه الموت. وهو عاشق لا يدري أنّه حبيب معشوق. فهو لا يدري أنّ طفلةً أحبّته، وشابّةً عشقته وحملت منه، وامرأةً اشتهته وجنّت به. هذا العاشق الّذي لا يدري هو تماما، كأوديب الملك، في بعض التّراجيديّات، لم يكن يدري أنّه تزوّج أمّه، وهو تماما، كلوط النّبيّ، في بعض القصص التّوراتيّ، لم يكن يدري أنّه ضاجع ابنتيه، وهو الرّوائيّ الشّهير لم يكن يدري أنّه ضاجع تلك الطّفلة الّتي سدّ عندها مسدّ الأب، وضاجع الشّابّة الّتي وهبها طفلا وهو لا يدري أنّه أبوه، وضاجع تلك المرأة وهو يظنّها من بنات المتعة الآثمة. كلّ هذا يهيّئه ليكون شبيها بالأب اللّيليّ. وهو أب أعمى، أو كالأعمى، لا يرى بسبب العدوى الأنثويّة الّتي أربكت رؤيته، فجعلته لا يميّز بين القانون واللّذّة، بين القانون الّذي يمثّله الأب،

واللّذّة الّتي يمثّلها إنسان المتعة الذّكريّة. وهذه العدوى لم تُصب إلاّ إنسان اللّذّة الّذي، كلّما دعته الأنثى إليه، لبّى نداءها ذاهب العقل. فإنسان اللّذّة مقترن بالأب اللّيليّ، وكلاهما لا يكون إلاّ بضرب من العمى. فالأب اللّيليّ هو الّذي تلقّى الغشاء اللّيليّ وغشاوته لأنّ كلّ شيء كان يجري في جناح الظّلام منقطعا عن كلّ تمثيل يهب للجسد الأنثويّ معناه ونور أسمائه. في هذا السّياق، نجد في بعض أقاصيص يوسف إدريس تمثيلا رائعا لاستعارة العمى المقترنة بالأب اللّيليّ. ففي «بيت من لحم»، كان بطل القصّة مقرئا أعمى، تزوّج من امرأة لها ثلاث بنات كنّ يتداولن النّوم معه في فراش الزّوجيّة. وكانت قرينة الأعمى الوحيدة في التّعرّف إلى زوجته هي خاتم الزّواج الّذي تضعه الأمّ والبنات كلّما جاء دور من ستنام مع الأعمى. فقد كان الخاتم الشّرط الكافي للتّعرّف إلى الزّوجة، وهو شرط احتاج إلى عمى مضاعف أصاب المسامع والعيون. تنفتح القصّة بهذه الكلمات: «الخاتم بجوار المصباح، الصّمت يحل فتعمى الآذان، في الصّمت يتسلّل الإصبع، يضع الخاتم، في صمت أيضًا يطفأ المصباح، والظّلام يعمّ، في الظّلام أيضًا تعمى العيون، الأرملة وبناتها الثّلاث، والبيت حجرة، والبداية صمت». فهذا العمى المضاعف مثّل شرط إمكان وجود إنسان اللّذّة.

مثل هذا العمى نجده في قصّة زفايغ «رسالة من مجهولة» وقد تجسّم في عجز الحبيب، ممثّل إنسان اللّذّة، عن تذكّر العاشقة المجهولة، والتّعرّف إليها. «احتضنتني بين ذراعيك. وقضّيت معك من جديد ليلة كاملة من اللّذّة البهيجة. ولكن، حتّى في عريي لم تعرفني. استسلمت سعيدة لمداعباتك الخبيرة، [...] وأنا منتشية

مرة أخرى بالسعادة القديمة، لمستُ في شبقك تلك الثنائية التي تميز كيانك، ذلك الشغف العقلي الواعي، الشغف الذي وقعتُ تحت تأثير سحره عندما كنتُ طفلة. لم أعرف مُطلقًا عند أيّ رجلٍ آخر، في لحظة فعل الحبّ، مثل هذا الاستسلام المطلق للّحظة الرّاهنة، ومثل هذا التّدفّق وهذا الإشعاع الفائض من أعماق الكيان - ليخمد بعد ذلك في نسيان مطلق وغير بشريّ تقريبا.».

وقد غمرَ هذا النّسيانُ المُطلَقُ العاشقةَ نفسَها. فهي تعترف في آخر هذا المشهد اللّيليّ: «أنا أيضًا نسيت نفسي: من أكون، في هذه الآونة، في هذه الظّلمة، وأنا إلى جانبك؟ هل أنا طفلة الماضي المتأجّجة، أمْ أمُّ طفلك، أم تلك الغريبة؟».

ألا تكون هذه الظّلمة هي هذه «القارّة السّوداء» الّتي تحدّث عنها فرويد حيث ينقلب إنسان القانون إلى أب ليليّ أعمى لا يميّز بين البنت والأمّ، والعشيقة. تقول العاشقة واصفة حبيبها «لاحظت أنّ تأجّجك في الحبّ لا يفرّق بين عشيقة وامرأة تبيع جسدها، وأنّك تنساق انسياقًا تامًّا إلى رغبتك». فالظّلمة هاهنا مقترنة بلذّة التّنعّم بملمس الجسد الأنثويّ، وهي لذّة لا يمكنها أن تكون إلاّ بقبول جزء من العمى شبيه بعمى أوديب الّذي فقأ عينيه لّما اكتشف هول حقيقة ما كان يَراه ولا يراه، أي زلزال الحقيقة الّتي لا تُحتمل. ونلمح هذا الزّلزال في آخر القصّة لّما أنهى الحبيب قراءة الرّسالة وقد تحرّك فيه شيء: «وضعت يداه المرتجفتان الرّسالة جانبًا. ثمّ ظلّ يفكّر مليًّا. تنامت بداخله في اضطرابِ ذكرى باهتة لطفلة في الجوار، وفتاة

شابّة، وامرأة صادفها في مرقص ذات ليلة [...] وبغتةً، وقعت عيناه على المزهريّة الزرقاء الموجودة أمامه على المكتب. كانت فارغة، فارغة في عيد ميلاده للمرة الأولى منذ سنوات. فانتفض مذعورًا. كأنّ بابًا لا مرئيًّا انفتح فجأةً فمرّ تيّارٌ باردٌ كالجليد قادم من العالم الآخر، ونفذ إلى سكينة غرفته. أحسّ بوجود شخصٍ ميّتٍ؛ وحُبٍّ خالدٍ لا يموت: وفي أعماق روحه، تفتّح شيء مّا، وأحسّ بأنّه يفكّر في العاشقة اللامرئية كمن يرنو إلى موسيقى بعيدة نائية».

تؤكّد هذه اليقظة المتأخرة أنّ إنسان اللّذة إنّما هو أب قد ضُربت على عينيه غشاوة من ظلام اللّيل لا تُفهم إلاّ بوصفها ذاك الضّرب من العمى الّذي يحتاجه كلّ شوق لإتيان المحارم، كلّ شوق رهقيّ *le désir incestueux* حتّى يشتغل خارج السّيادة الأبويّة الّتي لا تستمرّ إلاّ بتكاثر نسلها وتجدّد ذرّيتها. وقد اشتغل هذا الشّوق في هذه القصّة لّما انتهكت العاشقة «المبدأ الأنسابيّ» انتهاكا تجلّى في حرمان الأب من ابنه، والابن من أبيه، محاولة بذلك الحرمان امتلاك جزء من حبيبها خارج منطق القرابة والأنساب. تقول العاشقة مبرّرة صنيعها ذاك: «أخيرًا أمسكت بك؛ أستطيع أن أحسّ بك في شراييني تحيا وتكبر؛ وقد أتيح لي أن أطعمك، وأرضعك، وأغمرك مداعبات وقُبلا، حين تشتعل روحي رغبة. ولأجل ذلك كنت، يا حبيبي، كما ترى، سعيدة عندما علمت أنّي أحمل طفلا منك، ولأجل ذلك أحجمت عن إخبارك، لأنّك لم تعد قادرا على الهرب مني».

إنّ امتلاك الابن خارج السّيادة الأبويّة، والانفراد به بإقصاء

الأب والحلول في مكانه يترجم شوق الأنثى الرّهقيّ إلى امتلاك شيء عزيز من الأب يوازي روحه وجسده. فبإنجاب الابن يصبح الأب الغائب، والحبيب الهارب الطّائش، «مِلكا لي على الدوام، محبوسا في جسدي، مرتبطا بحياتي». وبهذا التّملّك تهب العاشقة لنفسها الصّفات الأبويّة *les attributs paternels*، وتحقّق شوقها الرّهقيّ على نحو كنائيّ *métonymique*.

***

يمكن أن نتساءل الآن: لماذا كتب زفايغ «رسالة من مجهولة» في سياق تاريخيّ بدأت طبول الحرب فيه تدقّ دقًّا رهيبًا يُنذر بالويلات؟ هل هي حرب بين البرابرة وأنصار السّلام أم هي حرب بين فينوس ومارس؟ أم هي حرب بين إيروس وتيناتوس؟

لنترك الجواب مُرْجَأً مؤجّلا. فبين الحبّ والموت، والحبّ والحرب، من الوشائج العجيبة ما يجعلنا نتساءل مرّة أخرى: ألا تنشأ قصص الحبّ إلاّ على خلفيّة الدّمار والحرب، حين يكونْ دافع الموت الغرزيّ *la pulsion de mort* متّجها إلى العالم الخارجيّ فينقلب إلى دافع دمار وإرادة قوّة؟ ثمّ إذا سلّمنا مع نيتشه بأنّ الحياة هي شكل غريب من أشكال الموت، أفلا تكون قصص الحبّ معربة عن شكل عجيب من أشكال الحياة؟

د. العادل خضر

سوسة في 2017/9/05



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm